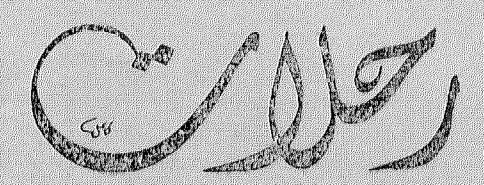
أحمد ماهر محمود البقري

دبلوم معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة
ماجستير في الآداب - جامعة الإسكندرية



السعودية

لبنان

قبرص

اليونان

إيطاليا

فرنسا

رومانيا

مؤسسة الثقافة الجامعية
ت : ٢٥٢٢٤١ الإسكندرية

أحمد ماهر محمود البقري

دبلوم معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة
ماجستير في الآداب ـ جامعة الإسكندرية



السعودية

لبنان

قبرص

اليونان

إيطاليا

فرنسا

رومانيا

مؤسسة الثقافة الجامعية
ت: ٣٥٢٢٤ الإسكندرية

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

الاهـــداء

إلى من يريدون سبيلا إلى الجنة فيسلكون لها سبيلا إلى العلم .

أحمد ماهر محمود البقري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

يسرني أن أقدم الى المكتبة العربية محاولة أدبية لي عن « رحلات » قمت بها ، ويستطيع القارىء أن يصفها بالسرعة ـ كالزمن ـ أو التنويع أو الجدية أو المرح أو أنها دينية أو علمية فهي مزاج من هذا كله ، ولكنني أستريح الى كل ما ينسب إلى الدين والعلم في المقام الأول ـ وتشتمل على ست مقالات :

الأولى : « لبيك عمرة » وهو لفظ النية حين يقوم المعتمر برحلته إلى البلد الأمين .. مكة المكرمة ثم المدينة المنورة .

الثانية . « حول البحر الأبيض المتوسط » ونتحدث فيه عن موانىء في لبنان وقبرص واليونان وايطاليا وفرنسا .

الثالثة : « يوميات في الموانى » وهي أكثر الموانىء التي نتحدث عنها في المقالة الثانية بانطباعات تختلف عن سابقتها .

الرابعة : « في مهبط الوحي » إلى المدينة ومكة مرة ثانية .

الخامسة : « أيام في رومانيا » نقضيها في العاصمة والشواطىء والمرتفعات الرومانية .

السادسة : « لبيك حجا » عود على بدء لأداء فريضة الحج .

والله أدعو أن يكون سعاي إلى هذه البلاد بقصد التعرف إلى الله بعمق .. ومزيد من العمق والاتساع .

والله ولي الذين آمنوا .

احمد ماهر محمود البقري

المقالة الاولى

لبيك عمرة

مكة المكرمة

«وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا» (الفتح ٢٤)

نظم نادى الجارك لأول مرة رحلة لزيارة الأماكن المقدسة بمكة والمدينة فى ٢٢ من رمضان سنة ١٣٩٠هـ (٢٣ نوفمبر سنة ١٩٧٠) وقد كان المألوف أن يكون وقت الزيارة شهر رجب ، ولهذا يطلق عليها الزيارة الرجبية ، وإن لم يثبت أنه - عليه الصلاة والسلام - اعتمر فى رجب .(١)

وقد يرجع تخصيص هذا الشهر إلى أن عبدالله بن الزبير لما فرغ من بناء الكعبة خرج ماشيا معتمرا ومعه أهل مكة فى ٢٧ من رجب ، غير أنه وردت أحاديث فى أفضلية العمرة فى شهر رمضان كما يقول رسول الله - ﷺ - «عمرة فى رمضان تعدل حجة »(٢) أى فى الثواب غير أنها لا تغنى عن الحج وإن تعددت ، اذ الحج ركن من أركان الإسلام يؤديه من استطاع إليه .

---

(١) ، (٢) صحيح مسلم ٦١/٤

سبيلا لايرجو سمعــــة أو شهرة بالغني والنقي وقال تعالى (وأتموا الحـج والعمرة لله[١]).

وتفيد كلمة (العمرة) الزيارة بوجـه عام . وهى بالمعنى الدينى زيارة بيت الله الحرام ، ووقتها أى يوم من أيام السنة ،وقد اعتمر رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثا إحداهن فى شوال واثنتين فى ذى القعدة [٢] .

وفى مساء يوم السفر (نحو الساعة ١١) لبسنـا ملابس الاحرام وهى إزار ورداء أبيضان، الازار يستتر به من السرة إلى الركبتين،والرداء يغطى الظهر والكتف الأيسر ، إذ يبقى الأيمن معرى وهو مايسمى بالاضطبـاع ، وذلك بعد التلفظ بنية العمرة «لبيك بعمرة» والتطهير . وواضـح أن هذه الملابس تمثل التجرد من متاع الدنيـــا وكأنما توحى بالتخفف من أوزار النفس [٣] ، فقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ـ عن ثياب الإحرام فقال - صلى الله عليه وسلم ـ لاتلبسوا القميص ولا السراويلات ولا العمائم ولاالبرانس إلا أن يكون أحد ليست له نعلان فيلبس الخفين وليقطع

---

(١) البقرة ١٩٦

(٢) الموطأ ص ٢٢٦ ويذكر ابن القيم أن عمره صلى الله عليه وسلم كانت كلها فى ذى القعدة ، وإنما وقع الاشتباه أنه خرج من مكة فى شوال للقاء العدو وفرغ من عدوه وقسم غنائمهم ودخل مكة ليلا معتمرا من الجعرانة وخرج منها ليلا فخفيت عمرته هذه على كثير من الناس .. زاد المعاد ١/١٨٤

(٣) وقد يكون الجانب الصحى مراعى فى عدم لبس المخيط إذ لاموضع الحشرات وبويضاتها ولهذا أيضاً تقلم الإظفار قبيل الإحرام .

أسفل من الكعبين ، ولا تلبسوا شيئا مسه زعفران ولا الورس ، ولا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين . [١] وكذلك قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لاتلبس المحرمه ثوبا بورس أو زعفران [٢] .

وقد كان الإحرام في مطار القاهرة حيث من غير المتيسر هبوط الطائرة في «رابغ [٣]» و هي ميقات أهل شمال افريقيا والشام ، والميقات هو مكان إحرام الحجيج والمعتمرين ويختلف باختلاف الشعوب جغرافيا ، فميقات أهل المدينة مثلا ذو الحليفة ، ولأهل نجد قرن المنازل ، ومكة : التنعيم ، والعراق ذات عرق (بكسر العين) ، واليمن : يلملم ولايجوز للمحرم أن ينوي بعد الميقات وإذا لم يتيسر له المرور به ينوي من المكان المحاذي له .

وفي الطائرة كنا نلبي بصوت غير مجهد (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك) أما النساء فيسمعن أنفسهن حتى هبطت الطائرة (جدة) حيث وجدنا تيسيرا من رجال جمرك مطار جدة كان له أثر طيب في نفوسنا .

ومن المطار استقبلتنا عربات من قبل أحد المطوفين أوصلتنا إلى مكة في طريق الشبيكة و هي أحد أبواب مكة الثلاثة (الآخران باب المعلى وباب

---

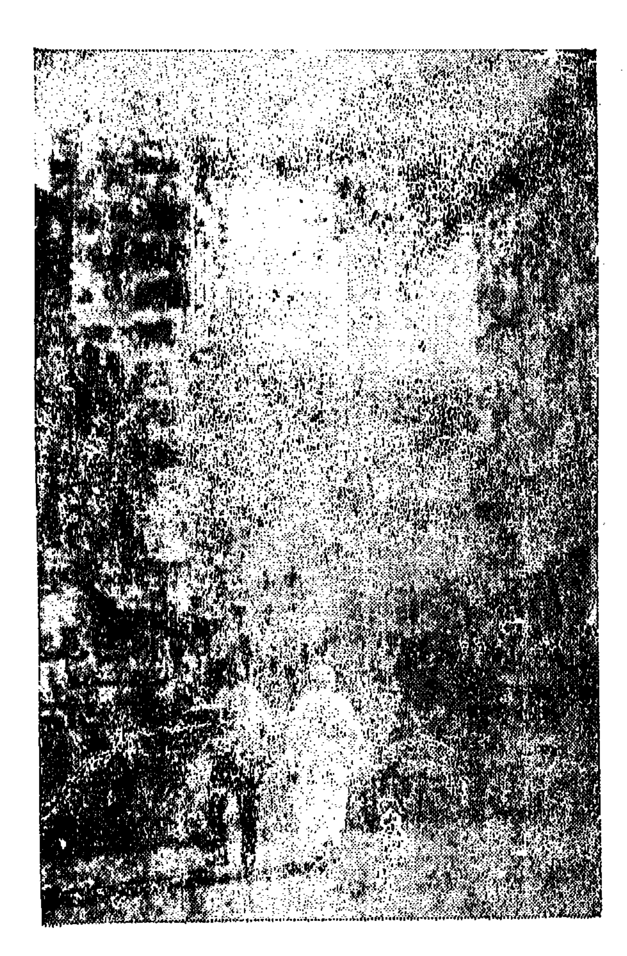
(١) صحيح البخاري ١٩/٣

(٢) الورس : نبت أصفر طيب الريح يصبغ به .

(٣) مدينة صغيرة على ساحل البحر الأحمر ، وكانت تسمى على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ الجحفة أوهي قريبة منها .

المنفلة) حيث بتنا في بيت المطوف لقاء ٤٥ ريالا لكل منا ، وكان متساهلا إذ لم يحدد مدة المبيت ولعله كان يعرف أن مدة الرحلة محددة من قبل فبتنا لديه بمكة خمس ليال .

وما أكثر أماكن المبيت في مكة ، هناك بيوت المطوفين ، الفنادق ، المسجد الحرام نفسه ، فالناس فيه في رحاب الله لاجئون إليه بشريطة أن يرعوا حرمة المسجد ويحافظوا على نظافته . وما أن وضعنا حقائبنا في بيت المطوف حتى اتجه بعضنا إلى المسجد الحرام يريد أن يشبع النظر والروح منه برغم ما نعانى من إرهاق السفر ، فاذا هو يتوسط مكة .



في الطريق إلى المسجد الحرام

وصف الكعبة : والكعبة وسط المسجد ولم تكن كذلك حتى عهد الوليد بن عبد الملك (١) ، ولها باب بين الحجر الأسود والركن العراقي ارتفاعه من الأرض نحو مترين ومغلق بقفل، وهي مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة وإرتفاعها ١٥ مترا ، طول الضلع الذي فيه الباب إثنى عشر مترا وكذلك الضلع المقابل له، أما ضلعها الذي فيه الميزاب فعشرة أمتار وعشرة سنتيمترات وكذلك ما يقابله .

والميزاب أعلى البناء في منتصف الحائط الشمالي الغربي لتصريف المياه من السطح ، وهو من عمل الحجاج وقد تجدد غير مرة ، والموجود في وقتنا من ذهب منذ عهد السلطان عبد العزيز .

أما الحجر الأسود أو الأسعد كما يسميه بعضهم — ربما لما يلقاه من قبلات الحجيج — فبيضى الشكل مجوف محفوف بإطار فضي يحفظ تماسكه لونه بني محروق لامع ، به نقط حمراء ، وتعاريج من أثر لحام القطع التي انكسرت منه ، قطره نحو ٣٠ سنتيمترا ... ها هي وجوه المعتمرين إنكاد لا تبين داخل الحجر ، قد وضعت الجباه ، وألصقت الشفاه لا يريد أحد أن ينصرف لولا أن يدفعهم عامل مختص تعرفه بجاكت أصفر ليعطى الفرصة لأكبر عدد من الطائفين ، والسيدات خاصة .. إنهم يشمون منه رائحة طيبة . يذكرنا هذا بما تلقاه الكعبة من عناية ، إذ تغسل باحتفال يحضره شريف مكة فيصلي ركعتين ، وتغسل بماء زمزم ثم بماء الورد ثم تضمخ بالعطر المسك ... والبخور .

---

(١) في منزل الوحي ص ٤٧١ .

ولا يملك الحاكم المخلص أن يدخر وسعا فى كل ما يهىء سبل الراحة لحجاج هذا البيت والمعتمرين ، فحسب البيت شرفا أن يقسم به الله في سورة مكية، قال تعالى «والبيت المعمور والسقف المرفوع ..»[1]

وفى المسجد الحرام مصاحف كثيرة وقف للمسجد للاطلاع عليها فى خشوع إذ لا تجد القارىء الذى يطرب بصوته فتأخذ الناس نشوة تبعد بهم من الوقار الدينى كما نلحظ فى بعض مساجد غيره ، كما قد تتعدد فيه حلقات الدرس بلغات مختلفة عربية أو إيرانية مثلا ، وقد رأيت فى وقت واحد من يلقى الدرس بالأوردية ـ فيما أظن بصوت هادىء وابتسامة راضية ولا أدرى إذا كانت اللغة العربية فى ذاتها لغة خطابة دون الأخيرة أم أن تلك مجرد صدفة وملحوظة عابرة .

وقد لفت نظرى بالمسجد غلام لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره يؤم شيوخا فى الصلاة يقرأ القرآن بصوت قوى جميل فوددت لو التقطت آلة تصوير هذا المنظر لولا أن السلطات المختصة تمنع إدخال آلات التصوير ولست أدرى لماذا ؟ فاكتفيت بالجلوس أستمع إلى الغلام وهو يقرأ آيات بعد الفاتحة استغرقت نحو ربع ساعة فتذكرت منظرا آخر فى القاهرة بمسجد « الكخيا » رجلا يؤم القوم فى صلاة القيام «التراويح» فاذا هو يقرأ سورة «عم يتساءلون» فى كل ركعة آية وأثنتين مثل «الذى هم فيه يختلفون » منفصلة عما قبلها بطريقة

---

(١) الطور ٤ ، ٥

بخلة ، فقلت فى نفسى هذا الغلام إمام للرجال بما يحفظ من القرآن وحسبه ويبز بعض الأئمة بما يتقن من الأداء مما يدل على فهم واستيعاب لمعانى القرآن .

البلد الأمين : ومكة بلد آمن نزل فيها قرآن، وأقسم الله بها (لاأقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد)(١) وينقل أبو شريح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص لقتال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لى ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم افتتح مكة «لاهجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها، قال العباس يارسول الله إلا الاذخر فانه لقبورهم ولبيوتهم قال قال : إلا الإذخر (٣) .

---

(١) البلد ١ ، ٢

(٢) صحيح البخارى ١٨/٣ ، مسلم ١١٠/٤ يعضد : يقطع

(٣) صحيح البخارى ١٨/٣ وما بعدها - الخلا (بالفتح) : النبات الرطب الرقيق ، يختلى : يقطع، الإذخر نبت طيب الرائحة تسقف به فوق الخشب .

وفى أهل مكة وداعة وحسن خلق وأمانة ، زيهم جلاليب بيضاء كأنما تعبر عما فى نفوسهم من نقاء ولعقيهم وهج الظهيرة .

مبانيها متواضعة . وليس فيها من وسائل الترف واللهو ما تعرفه القاهرة وبيروت وغيرها من العواصم والمدن الكبرى ، ومع ذلك ففيها متعة المتع الروحية «المسجد الحرام» الذى يؤمه آلاف المسلمين من كل فج عميق . وقد رأينا المسن الذى حمل على «نقالة» خشبية ليطاف به حول الكعبة ورأينا الأحدب الذى تظن أن يرهقه الطواف ، والأعرج الذى يسعى بين الصفا والمروة فى سعادة وكلهم يرجو من الله عودا حميدا .

وقد رأينا من استغنى عن المطوف بقراءة كتاب يشرح مراحل الطواف والسعى بين الصفا والمروة سبع مرات أثناء الطواف والسعى .

وشهدنا فى العيد المسجد ممتلئا بالرجال والنساء والأطفال فى أحسن زينة ولقد لفت نظر المقيمين بالسعودية كثرة أفواج المصريين كثرة لم تعهد منذ سنوات فكيف لو أتيح لكل الراغبين فى الزيارة فقد وجدنا بالقاهرة من يزيد ثمن تذكرة الطائرة بعد أن حجزت المقاعد جميعا إلى مائة جنيه أى ضعف ثمنها المحدد . ومع ذلك فلا يجد من يبيعها إياه .

المدينة المنورة

﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم﴾
الأنفال ٧٤

برغم أن مناسك العمرة بمكة إلا أن المعتمر أو الحاج لايملك وقد هبط الحجاز إلا أن يشد الرحال إلى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة المنورة حيث هاجر الرسول واستقبله أهل المدينة أحسن استقبال وسموا لذلك الأنصار وظل هذا الاسم علما عليهم يردده التاريخ بالحب والتقدير، هذا المسجد أحد ثلاثة مساجد حث على السفر إليها رسول الله - ﷺ - في قوله : «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، مسجدي هذا ، والمسجد الحرام والمسجد الاقصى (١) »وقد قال ﷺ :صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام (٢) .

استأجرنا سيارة تسع سبعة ركاب غير السائق حيث تقاضى السائق عشرين ريالا من كل راكب ، وسارت السيارة على بركة الله تقطع طريقا تحفه الجبال من كل جانب ... مسافة نحو ٤٥٠ ك . م في سبع ساعات تقريبا فأي زاد من الإيمان كان يحمله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في نفسه جعله صابرا على الخروج من مكة إلى المدينة في ١٢ ربيع الأول بعد أربع عشرة سنة من البعث ومعه أبو بكر ومولى أبي بكر (عامر بن فهيرة) وعبد الله بن أرقط

---

(١) صحيح مسلم ١٠٢/٤
(٢) صحيح مسلم ١٢٤/٤

الديلي – ولم يكن مسلما (١) – مع التأثر الشديد للخروج من مكة إذ يقول رسول الله عن مكة (والله إنك لأحب أرض الله إلي وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن قومك أخرجوني ماخرجت منك) .

والمدينة شمال مكة وقد كنا نقف بين الحين والآخر في أماكن مشهورة (عسفان ، رابغ ، مستورة ، بدر) للراحة أو للصلاة ، حتى بلغنا المدينة قبيل الفجر بساعة تقريبا ، حيث توجهنا على الفور إلى مركز بعثات الجمهورية العربية المتحدة (التكية) بجوار مدرسة طيبة الثانوية في طريق بابالعنبرية .

وطيبة اسم ثان للمدينة المنورة وكذلك طابة (٢)، وقد كان اسمها قبل هجرة الرسول اليها « يثرب » فغير هذا الاسم لكيلا يوحي إلى النفس بجو الجاهلية الأولى فيما نرى .

وما أن وضعنا حقائبنا حتى تطلعت نفوسنا إلى أن نستنشق الهواء كله إن أمكن من خارج مركز بعثات الجمهورية ، وكيف لا ونحن نحس أن ريح رسول الله – ﷺ – ينفذ عبر الزمن الطويل .. أكثر من ألف سنة ليصلنا بحياة الإسلام في وضاءتها واشراقها .

ذهبنا إلى مسجد رسول الله – ﷺ – وبه عدة أبواب .. باب الرحمة ، باب جبريل ، باب عثمان بن عفان غير أننا دخلنا من باب السلام حيث قبر الرسول بعد أمتار قليلة، وأخذت أقترب والأمل يزيد في أن أقترب من رسالة محمد النبي المناضل الشجاع : تذكرت هذه الصفة وقد تساقطت الدموع من عيني

---

(١) سيرة النبي ٩٨/٢ وما بعدها ، مروج الذهب ص٤٩٧ .

(٢) صحيح مسلم ١٢١/٤

كيف خاض رسول الله حربا ضروسا مع أعداء الحق ، وكيف أوذى فى سبيل الله من رءوس الشرك .. أبى لهب ، أبى جهل مثلا فصبر ولم يتزعزع عن حق ؟ !

لقد بدأنا بالسلام وقلنا من الأعماق (اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام) وبعد ركعتى تحية المسجد يمثل المسلم أمام قبر رسول الله قائلا : أشهد أنك رسول الله أديت الأمانه وبلغت الرسالة ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .. وهى العبارات التى يذكرها المسلم فى تشهده .

وقد سمعت أناسا يناجون الرسول بقولهم (ياطه) وليس هذا من أسماء الرسول ، فقد أخبر الرسول — ﷺ — من أسمائه أنه محمد ، أحمد ، الماحى الذى يمحو الله به الذنوب ، العاقب ، الحاشر أى الذى يحشر الله الناس على عقبيه فكيف نزيد على هذه الأسماء (١) ؟

وقد أعجبنى بالمسجد المحافظة على العقيدة فلا يسمح لزائر بالتمسح بالحاجز المعدنى الذى يضم فى الداخل الجسد الطاهر .. جسد رسول الله — ﷺ — وأبى بكر وعمر ، وقد حاولت أن أنظر هل سوى قبر رسول الله بالأرض أو ارتفع قليلا فلمست يدى سهوا الحاجز المعدنى فاذا الحاجب يقول بصوت غاضب : تعال هنا ياولد ، فأجبت النداء مبتسما فالحاجب لا يعرف أن كلمة الولد فى مصر لا تطلق على الشباب والرجال كما تستعمل عندهم ، وقد علمنا أن قبر الرسول — ﷺ — يرتفع قليلا عن الأرض .

---

(١) أما (طه) الذى سميت سورة به فى القرآن الكريم ، فهو كما سميت باسم (ص) و (ق) حروف مقطعة من مادة مايستعمله العرب فى لغتهم ومع ذلك لا يستطيعون الاتيان بمثل آية قرآنية . . فهذه الحروف للتحدى والإعجاز .

وبعد أداء الصلاة بالمسجد الرحيب (١) سيما فى الموضع الذى حدثنا عنه رسول الله فى حديثه «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة» (٢) خرجنا نستكمل فى أذهاننا صورة الكفاح المستميت من أجل العقيدة ونشر المبادئ البقيع ، الموقع الذى يضم رفات خيرة المسلمين الأوائل وصحابة رسول الله ومنهم عثمان بن عفان ، الحسن بن على ، زين العابدين بن الحسين ، عبد الله بن مسعود ، الإمام مالك ، وقد سويت قبورهم جميعا بالأرض وغير مسموح للنساء بدخول هـذه المقابر فتذكرت ما يصنعه النساء بالمقابر فى مصر من صنع الجاهلية ، ومقابر جنوة حسه وكنت قد زرتها صيف العام الماضى — وهى آية فى الفن الجميل بما فيها من تماثيل تشدك للوقوف أمامها تتأمل صنعة الفنان الإنسان ولكنها تنسيك عبرة الماضى وليست هذه هى الحكمة من زيارة القبور .

وفى أهل البقيع روت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين واتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد (٣) .

ثم جبل «أحد» حيث انتصر المسلمون وهو على بعد أميال شمال المدينة وقال عنه رسول الله «أحد» جبل يحبنا ونحبه، ولما أشرف عليه الصلاة والسلام

---

(١) كانت مساحة المسجد على عهد رسول الله نحو ٢٥٠٠ م٢ وقد زيدت الآن ثمانية أضعاف تقريبا .

(٢) صحيح البخارى ٢٩/٣ ، مسلم ١٢٣/٤ .

(٣) صحيح مسلم ٦٣/٣

— على المدينة قال : اللهم إنى أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم [١] .

وكنت قد وصلت إلى « أحد » فى عربة أجرة مشتركا مع غيرى ووقفت أستعيد التاريخ غير أن السائق لم يمهلنى للعودة معه وتركنى دون أن يتقاضى أجرا .. ها هنا على جانب من الجبل رقد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب الذى قتل واحداً وثلاثين من قريش ثم ضربه وحشى بحربة ولاكت كبده هند بنت عتبة تشفيا منه إذ صرع أباها فى بدر .

ثم مسجد قباء الذي يقول الله فيه (.. لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) [٢] وقد بناه بنو عمرو بن عوف وسألوا النبى أن يصلى فيه ففعل وقال عنه (لو يعلمون ما فى قباء لضربوا إليه أكباد الابل) وذلك لأنه أول مسجد فى الإسلام ، وقد أهدى محرابه الحالى للسعودية الرئيس الحبيب بورقيبة .

ومسجد القبلتين حيث كان المسلمون يتوجهون فى صلاتهم شطر بيت المقدس وبعد ثمانية عشر شهرا من قدوم الرسول المدينة حولت القبلة إلى الكعبة.

من هذا يتضح أن المدينة عامرة بجوانبها الروحية، وسيظل أهلها متمسكين بروح الشريعة إلى آخر الزمان إن شاء الله، فهم لا يسمحون بأى بادرة خروج

(١) صحيح مسلم ١١٤/٤ والمقصود جبلا عير وثور على طرفى المدينة جنوبها وشمالها .

(٢) التوبة ١٠٨ .

عن الآداب العامة تؤازرهم فى ذلك الحكومة ، فقد رأيت مجموعة من الناس فى صخب وضجيج فأخذت أستطلع الخبر فإذا أحد الشباب قد ربى سوالفه بطريقة معوجة فاصطحبه مندوب هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمدينة إلى حلاق ليصلح ما أفسدت أيدى الشاب من رأسه . والقوم هناك يستنكرون كل رذيلة فيتبرءون من صاحبها فإذا وجدت مثل هذا الشاب قيل لك إنه ليس من المدينة ، وإذا رأيت شحاذا فهو ليس من المدينة أصلا كذلك . والحكومة تناشد فى منشورات اطلعت عليها الوافدين على البلاد المقدسة ألا يخرجوا على العرف الاسلامى المتبع فإذا كانت العقوبات التى توقع على المخالفين عن أمر الله تبدو عليها القسوة فإنها تحمل الرحمة فى طياتها كما هو الشأن فى عقوبة السرقة ، فالدولة هناك — فيما سمعت — تستتيب السارق فإن أعلن التوبة وضمنه أحد الأهالى تركته فإذا عاد تولت قطع يده حسبما تأمر الشريعة ، ولهذا فإن من تحدثه نفسه بالسرقة يتردد ألف مرة قبل الاقدام فتأمل كيف يعيش الناس فى أمن وطمأنينة على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم لأنه قلما تقع حادثة سرقة أو غيرها من الجرائم .

وإذا كان قيل أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ففى هذه البلاد القرآن والسلطان ، والمعانى الدينية فى نفوس الناس لها سلطانها قبل سلطة الحكومة ، صحيح أن بعض التجار هناك — حتى فى بعض المكتبات أحيانا — قد يساومون فى السعر ولكنهم لا يغشون ولا يخونون :

أثناء مساومتى لشراء حقيبة سمعنا آذان الظهر فاحترمت عادة بعض التجار فى هذا الوقت أن يتركوا محالهم مفتوحة ليؤدوا الصلاة وقد وضعوا قطعة قماش مبسوطة بالباب دلالة ألا بيع ولا شراء فأودعت التاجر بعض الأشياء الصغيرة أمانة وتوجهنا للصلاة وحينما عدت وجدت وديعتى كما هى ، وتذكرت

قول رسول الله (رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا قضى ، سمحا إذا اقتضى) فقلت: أنقده الثمن الذى قال ، وهممت باخراج الريالات فلم أجدها فاعتذرت له من الشراء إذضاعت نقودى فى الطريق فرد التاجر بابتسامة تخفف ما يكون فى النفس من أسف : لقد نسيت الـ ٣٥ ريالا بالمحل عند سماعك للأذان .. كيف كنا نختلف على السعر فاذا ما وقع الثمن كله فى يده ـــ والحقيبة عنده يخبرنى بالحقيقة ؟ إنـه الإيمان والأمانة ومع ذلك وددت لو كان السعر محددا حتى يطمئن المشترى نفسا ، ويستريح البائع من المساومة وضياع الوقت فيها .

ومن المفارقات اللغوية أننا دخلنا مطعما فسألنا بكم نصف دجاجة مشوية ، فقال صبى المطعم : ثلاثة ريالات ونصف بالزلطة ، ولم نفهم معنى (الزلطة) هنا واستغرب الصبي عدم فهمنا فأتى بطبق مما نسميه فى مصر بالسلطة مما أثار ضحك الجالسين ، وأخذت أعلل تسميته هذه لقد أبدل السين زايا كما يقول بعضنا (مهندز) بدلا من (مهندس) والسين والزاى كلاهما حرف صفير .

ومن المياه الغازية فى هذه البلاد ماتسمى كعكى كولا ، بيبسى كولا ، عصير البرتقال (ميشن) وسفن أب ولكنها أبداً لا ترقى إلى ماء زمزم الذى قيل فيه : زمزم لما شرب له (١) وعندنا أن استعادة قصته التاريخية حين زمت هاجر حول الماء ومنعته من الجريان لتروى منه ... (٢) كفيلة بأن تريح

---

(١) وهو غير ثابت النسبة إلى رسول الله ـ صلى الله علية وسلم ـ .

(٢) مروج الذهب ص ٣١٩ .

النفس والجسم تبعا لذلك (١) .

وأخيراً حان وقت الرحيل إلى بلادنا فركبنا عربةإلىجدة حيث أمضينا في جدة يوما جميلا ، فقد تكون قريبة الشبه بالاسكندرية أو السويس إفهى ميناء مثلهما وبها مقـار لسفارات أجنبية وكان قد تبقى معنـا بعض النقود فاشترينا بها هدايا كيفما اتفق بعد استقطاع ستة ريالات سعودية رسم مغادرة المطار وفي هذه المرة بلغ التيسير أن تركنا الحقائب للوزن دون أن تفتح بمعرفة رجال الجمارك بجدة فما فيها مطمئن إذاعلمنا أنه سمح لنافي مصر بتحويل ٤٠ر٦٢٠ جنيهاوهو مايساوى عشرة دنانير كويتية و ١٧ جنيها استرلينياً ، والدينار يساوى ١٢ ريالا سعوديا و ٩ قروش ، والجنيهالاسترليني١٠ريالات سعودية و ٤١ قرشا وهو مبلغ يكفي رحلتنا (٢) دون اسراف في الهدايا ، وليس يرضى عاقل أن يفسد زيارته بعرض زائل مهما كان .

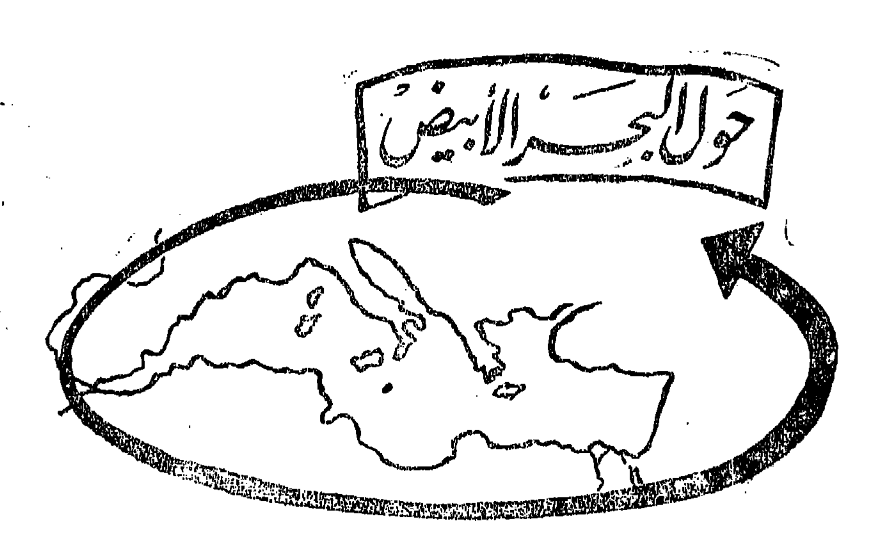
وركبنا الطائرة التي هبطت بنا ميناء القاهرة الجوى صبيحة الجمعة ٦ من شوال ١٣٩٠ هـ (٤ ديسمبر ١٩٧٠) وفي النفس : آيبون عائدون إن شاء الله .

---

(١) يقول ابن القيم « ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب هنـاك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفي بالعسل ومـاء زمزم » مفتاح دار السعادة ١ / ٢٠٠ .

(٢) الريال السعودي يساوي ١٠ قروش مصرية .

المقـــالة الثانية



« وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم »
(هود ٤١)

أبحرت الباخرة من ميناء الاسكندرية فى الساعة الخامسة مساء ١١ / ١٠ / ١٩٧١ والأمل يغمرنا فى قضاء وقت طيب ومفيد لا يعكر مزاجنا دوار البحر ، وقد جربت نفسى فى مرات سابقة فى ركوب البحر ، والبحر الأحمر خاصة فى رحلة إلى الغردقة وهو أكثر هياجا من البحر الأبيض المتوسط وحمدت الله أنى لا أصاب بهذا الدوار وقد زادنى يقينا بالله أن الإجراءات الأولى للرحلة كانت ميسرة تماما . . الجوازات ، التطعيم ، تذكرة الباخرة حجزتها فى يوم بدء الرحلة بسعر مخفض قليلا ، إعداد حقيبة السفر خفيفة وغير ناقصة.

(قبرص ليماسول) :

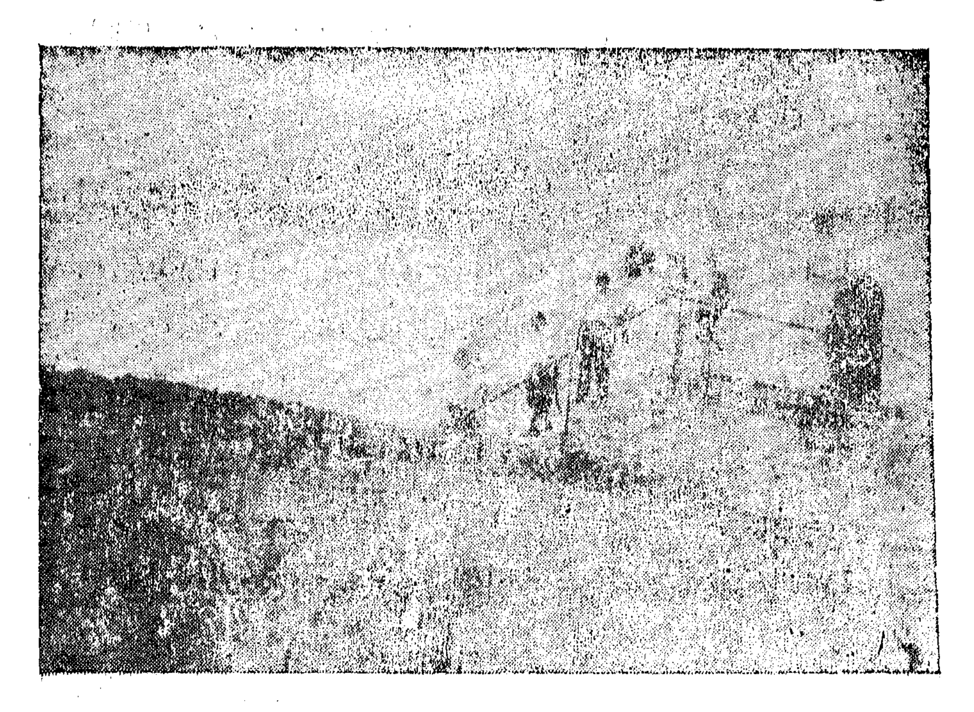
الباخرة فى البحر متهادية كأنها لا تريد أن تنتزعنا سريعا من قلب وطننا

حتى وصلت فى اليوم الثانى إلى ميناء ليماسول « Limasol » بقبرص الساعة الثانية بعد الظهر .

ليس بهذا الميناء رصيف فتقوم اللنشات بنقل الركاب مقابل دولار للفرد حيث صالة الجمرك قريب .

يخرج الفوج المصرى وعدده ٧١ راكبا ليستقل عربتين من عربات السياحة ، تصطحبنا مرشدة نصف لتقول بالانجليزية هادئة : عدد سكان قبرص ٦٣٠ ألف نسمة ٨٠ ٪ منهم يونانيون ، ١٨ ٪ أتراك ، ٢ ٪ جنسيات أخرى . اللغة السائدة اليونانية والأتراك يتحدثون التركية ، وتستخدم الانجليزية تقريبا فى كل مكان أكثر من الفرنسية .

الجو صحو ، لا يفترق كثيراً عن الاسكندرية ، السيارة تأخذ طريقها فى أرض فضاء شاسعة المساحة . . من بعيد قاعدة انجليزية ، وها هى قلعة



قلعة كولوسى

ـسى Kolossi Castle مبنى ارتفاعه فى نظرى نحو ١٧ متراً له مدخل
نتان أو ثلاث ولكن لا يمكن أن يرقى إلى مستوى آثارنا فى الأقصر
، ومع ذلك فهم يهتمون به لأنه قطعة من التاريخ اذ أنشىء فى عهد
ابيين .

ثم ما يطلق عليه Curium مكان قديم دارس يشمل مسرح الرومان
ـنه كانوا يعذبون المسيحيين باطلاق الأسود عليهم . وعلى مقربة منه
ون للغرض نفسه .

ومن أجمل ماسمعت من امرأة أن يرد على لسان المرشدة « من الممكن
تنتزع الذهب من أصبع ـ وتشير إلى أصبعها ـ ولا يمكن أن تنتزع
يمان من قلب » .

ولعل مرجع القصور فى تلقى مزيد من المعلومات عن هذه الأماكن إلى
الرحلة أكثرها كانت تستعجل العودة إلى قلب المدينة لشراء أشياء تنقصهم .

إندفاع عجيب إلى المحلات بحثاً عن الصوف الإنجليزى فى المقام الأول
ستشرب فصانعنا المصرية تنتج صوفاً جيداً وصدق الشاعر :

وكل الناس مجنون ولكن .·. على حسب الهوى كان الجنون

تنقلت فى المدينة على قدر ما سمح وقتنا الضيق ، فى الناس وداعة وكنت قد
كرت قول فتاة يونانية بمصر تشكو قسوة أبيها فى معاملتها وتصفه بأنه
ذاتى « صعيدى » فأسألها : كيف ؟ فتقول يعنى قبرصى . لابد من معاشرة
اس وقتاً طويلاً لمعرفتهم حق المعرفة .

وفى نحو الساعة السابعة مساء بدأت المحلات تغلق أبوابها. فأخذت طريقى الى الجرك قبل الرحيل بمدة كافية أستطلع أخباره .

وفى هذا الشارع كانت عربات الأجرة كثيرة واقفة مختلفة الألوان لا يظهرها إلا لافتة كتب عليها Taxi ذهبت ربما لتنام .

أدخل صالة التفتيش الجركى ليس فيها إلا عامل واحد بملابسه الرسمية أتنقل فى صمت أقرأ اللافتات بالانجليزية . ممنوع تصدير التحف إلا بإذن .

هذا مكتب المهاجرين . مكتب لقيد التليفزيون والراديو. استعلامات، بنك وأسأل عامل الجرك عما هو مصرح بادخاله بدون رسوم فيقول: زجاجة من الخمور وكرتونة سجاير ولكن رفاقا فى الرحلة ذكروا لى أنهم منعوا الدخول بكرتونة سجاير لكل منهم وحجزت ريثما يعودون من جولتهم فى المدينة والسبب أن تأشيرة دخولهم: ترانسيت ، ولا تهاون فى تطبيق القانون.

وقد كانت طريقة تفتيش الحقائب عند الدخول تبدو جادة فممنوع أن تكون الأشياء ذات صفة تجارية . وكذلك تبدو الجدية فى صيغة هذه اللافتة:

passengers are reminded that any breach (خرق) of the condition makes the article forfeit to the republic under 158 of the customs andxecise (ضريبة) law 1967 .

هذا وقد تمنيت أن أزور فى قبرص نيقوسيا ، فاماجوستا ، كيرنيا . ففيها آثار أيضاً . وصعدنا الباخرة بعد العبور باللانش حيث بدأت مغادرة الميناء الساعة الثامنة مساء اليوم نفسه .

ويسأل بعض الرفاق : ماذا أشتريت ؟ فأجبت بالنفى فتصيح سيدة: ودينى

انه مخابرات علينا ، فأدركت أن لحساسية وظيفتى جانباً آخر إبالنسبة لجمهور الرحلة ، الصداقة بالباخرة لابأس بها .. عند الشراء من المحلات لاداعى لها .

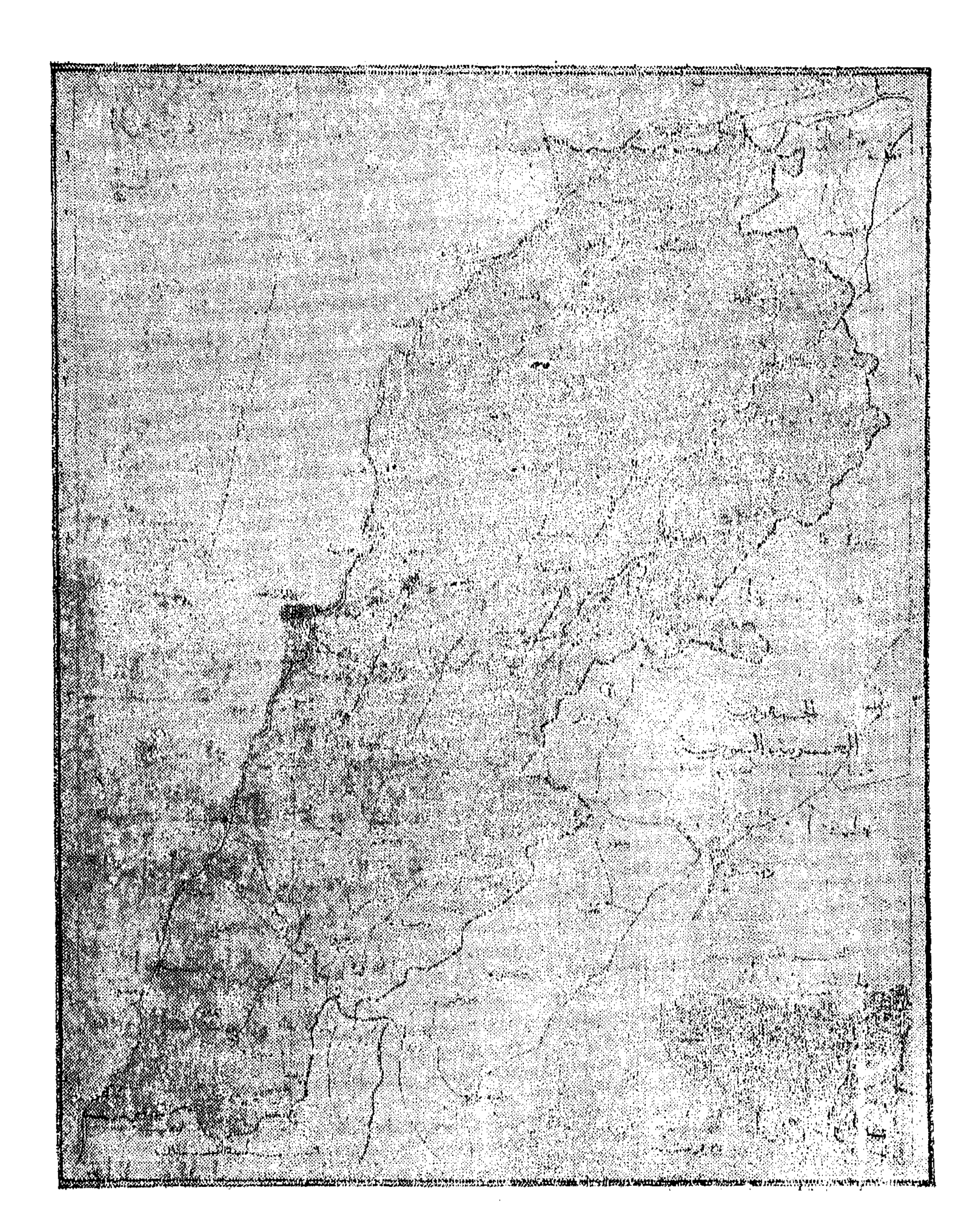
نجتمع ثانية فى الباخرة ، يتحدث بعض أنه اشترى زجاجات ويسكى ودنانا صغيرة مشروبات روحية ، ويسألنى اذا كان جمرك الركاب بمصر يسمح بهذه الكميات فأرد : لتر واحد من المشروبات الكحوليه فيقول أحدهم: ألا يحدث تجاوز ؟ فأقول . ينبغى التشدد فى إدخال المشروبات الكحولية ولايسمح بأية كمية بالنسبة للمسلمين الا بعـــد دفع رسوم عالية ، فترد عائلة مسيحية : إن ديننا يمنع أيضا هذه المشروبات لاسيما إذا أفضت الى سكر .

لبنان (بيروت):

وداعا قبرص ، الباخرة تتجه إلى ميناء بيروت حيث تصل اليه نحو السابعة صباح اليوم التالى ، عربتنا السياحة يكتفى باحداهما إذ أعرب كثير من أعضاء الرحلة أن تكون زيارتهم للمحلات وجولة حرة فى الأسواق .

اتجهت بنا العربة إلى داخل المدينة حيث ميدان الشهداء لترينا من بعيد بعض المصايف فى محافظة جبل لبنان : عالية ، بحمدون ، صوفر ، شعورة .

بعض الطرق يبدو ضيقا ومع ذلك تسير فيها العربة بمهارة كطريق ماريا ماانا . وقد ازدهرت ماريا كمصيف حتى سنة ١٩٤٥ وهى تبعد عن بيروت بنحو ربع ساعة ، الأمر الذى جعلها تزدحم بالسكان ويهجرها المصطافون بحثا عن مناطق الهدوء والارتفاع عن سطح البحر أكثر من ٦٠٠ متر .



لبنان

بعلبك : زيارة أخرى إلى مدينة بعلبك في محافظة البقاع بالقرب من الجبل الشرقي في عرض ١ر٣٤° شمالا ، وطول ١١ر٣٦° شرقا ، وهي من كلمتين : « بعل » ، « بك » أي رب الوادي بالفينيقية[1] وقيل إن أصلها بعل بقع [2] وقد ذكر عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق . [3]

وربما ذكر الراوي قوله « اسم صنم » تحرجا من أن يذكره حسب اعتقادهم أنه (رب) والمدينة شمالا غربي دمشق على بعد ٦٠ كيلومتراً منها وأيا كان الأمر فهي تدل على أصلها العريق .

وثمة معابد رومانية بناها الساميون ، ويرتفع البناء على البحر ١٢٥ متر .

كان عدد السكان آنذاك نصف مليون نسمة في بعلبك لصلاحية التربة للزراعة في سهل البقاع إذ يجري في هذه الأراضي نهرا العاصي والليطاني .

وتحف بعلبك بجبلين الأمر الذي جعلها محصنة من الغزاة والقراصنة ، وحيث توجد المحاجر بنيت المعابد . وأضخم الأعمدة في المعبد نحو سبعمائة طن .

هنا تمثال لإله الشمس جوبتر ، وإله الخمر باخوس يحمل كرمة عنب وإلهة الحب والجمال فينوس ، وإله الصحة هيجيا ، وإله الحصاد ساريس .

---

(١) رحلة مصري الى فلسطين ولبنان وسورية .
السيد عبد المؤمن كامل الحكيم ص ١٣١ ، ط السلفية بمصر سنة ١٩٢٤

(٢) حدثني ثقة أن « بقع » بالسامية تعني السهل وحرفها اليونانيون الى (بك) في عهد الاسكندر .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٠ وذلك عند قوله تعالى « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » الصافات ١٢٥ .

فى الطريق نجد ميناء صغيرا فى بحيرة يدعى «زيا» للمراكب الصغيرة واليخوت، لافتة ترحب بقدم أجنيو Agenew نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية[1] فى ١٥/١٠/١٩٧١ وأصله – كما يقول المرشد السياحى – فلاح يونانى .

الشوارع نظيفة ، هادئة ، الكناس يرتدى زيا أبيض كأنه مطمئن إلى أنه لن يتسخ سريعا .

المواصلات تبدو مزدحمة وفى الإمكان زيادة عدد الأتوبيسات ولكن زيادتها قد يخلق مشكلة للمرور . أما الأتوبيس السياحى فممنوع أن يقف فيه سائح التماسا لراحة السائحين .

وكذلك تعانى المدارس من زيادة عدد الطلبة وقد حلت المشكلة بأن تكون الدراسة على فترتين كما نجد فى مصر بالنسبة لبعض المدارس .

وتمضي العربة مارة بكورنيش أبولو وبين الحين والآخر يتحدث المرشد : هنا مرصد جوى... يبعد مطار أثينا ٧ كيلومترات من طول البحر .

ها هى أثينا العاصمة ، رمز الحضارة الاغريقية القديمة ، لقد زرتها منذ ثلاث سنوات فى مهمة مصلحية لاتمام الإجراءات الجمركية على فوج سياحى اختصارا للوقت حين حضورهم إلى جمرك الركاب بالاسكندرية ولكن لم أزر آثارها فى ذلك الحين ففاتنى نفع كثير وهى مدينة جميلة دائرية الشكل محاطة بالجبال ومنها جبل بنديلى الذى يؤخذ منه الرخام .وأشهر آثارها الاكروبول وتعنى كلمة أكربول قمة المدينة باليونانية .

---

(١) هو اسبيرو أجنيو وكان قد خضع للتحقيق بتهمة الفساد والرشوة أثناء عمله كمحافظ ، وكنائب للرئيس نيكسون فقدم استقالته من منصبه فى ١٠/١٠/١٩٧٣م

وهو مقر الحاكم وكبار الموظفين ، ويصعد إليه الأهالى للدفاع عن أنفسهم أثناء الحرب .

ويروى المرشد — وهو يونانى أقام فى مصر حياته ويتكلم العربية باللهجة القاهرية كأهلها — أن آخر ملوك أثينا ويدعى كودروس قتل بنبال العدو ، بعد هذا تولى الحكم تسعة من النبلاء كانوا يختارون سنويا ثم اتخذ الاكروبول مكانا للعبادة إذ كانت آلهتهم أحد عشر منهم مثلا أفيستوس إله الحرف .

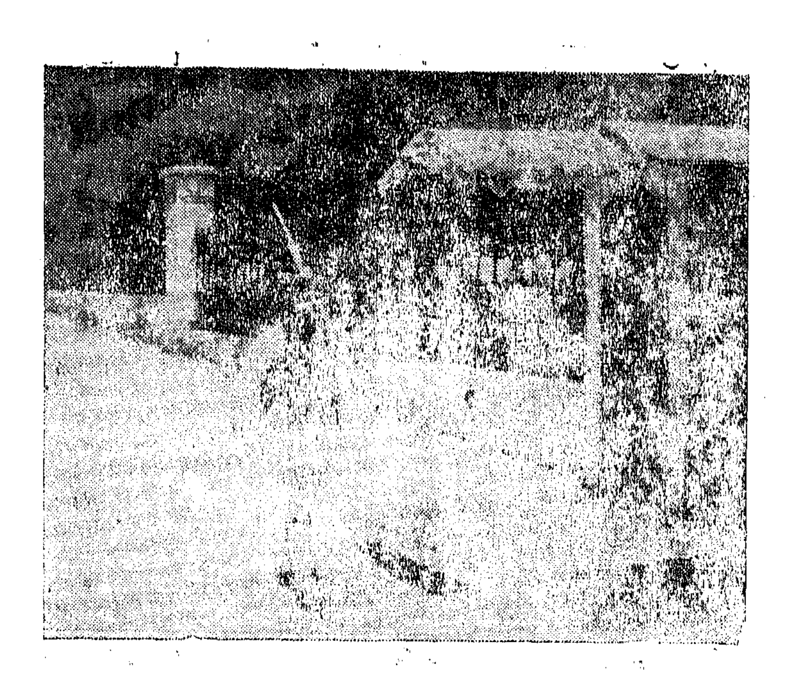
وقد دمر الفرس الأكروبول بعد عشر سنوات من غزوهم سنة ٤٩٠ ق.م. ولأثينا ربة العفاف ، وحارسة الشابات اللاتى يعملن بالابرة تمثال فى الاكروبول يمثل النصر .

وفيه أيضاً البارثينون وهو معبد العذراء ويقصد بها أثينا التى لم تتزوج وهو مكون من ٨ × ٧ عمودا - وايركيثون وبه كارياتيد وهو عبارة عن ٦ تماثيل لشابات عفيفات من « كاريا » وهي قرية صغيرة بجوار اسبرطة . وبروبيليا : ويقصد به مدخل المعبد .

وعلى بعد دقائق من الاكروبول تجد تمثالا الورد بايرون الشاعر الذى عاش فى اليونان .

وتنتهى زيارة الاكروبول لنستقل عربة السياحة ... هذا هو الأستاد الأولمبي الذى يسع ٧٥ ألف متفرج ، طوله ١٨٠ مترا ، عمره ٧٥ سنة . وها هو القصر الملكى من دوربن حيث نرى فتيين فى ملابس رسمية تبدو غريبة

هاهنا يسيران ذهابا وجيئة أمام القصر، وقد أخذ السائحون فى التقاط المناظر بآلات التصوير .



القصر الملكى باليونان

هنا البرلمان ، المفوضية المصرية ، شارع الجامعـــة من أهم الشوارع وبه المحكمة العليا ، بنك اليونان ثم توقفت السيارة ليدخل إخواننا المسيحيون فى الرحلة إحدى الكنائس ودخلت معهم ، وبعد أن أوقد كل منهم شمعة أنتظر خادم الكنيسة فترة ثم قام باطفاء الشموع فسألت سيدة لماذا فعل هذا؟ قالت لأننا لم نضع نقودا فى الصندوق المخصص لذلك ... فتبسمت ولا أدرى من المخطىء .

ويذكر المرشد أن فى أثينا مسجدا أيضاً .

وفى اليوم السادس واصلت الباخرة مجراها عبر بحر إيجة مارة بقناة كورنثيا Corinth تلك القناة التى تصل خليج كورنثيا ببحر ايجة وهذا الخليج الطويل يكاد يفصل شبه جزيرة المورة عن باقى اليونان ... منظر رائع بالليل فى ضوء المصابيح ، فما بالك بليلة قمراء !

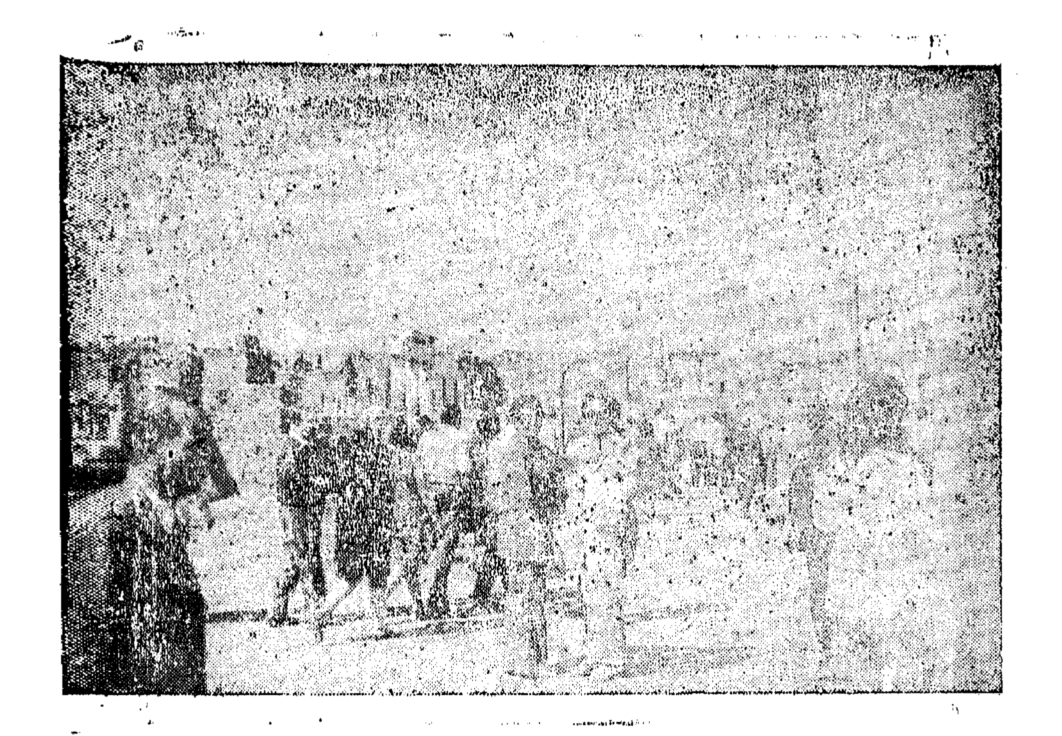
ومررنا بعدة جزر وفى الساعة ٥٫٣٠ مساء أعلنت المذيعة بالباخرة أننا سنمر بمضيق مسينا الساعة الثامنة مساء وهو مضيق بين جزيرة صقلية ومقدم الحذاء الايطالى فى الجنوب وبرغم نسايم لا تخلو من برودة وقفت ساعة أو تزيد أستمتع بالمنظر البديع ، السحاب الداكن والشفق الأحمر ، والأضواء الصناعية كأنها مصابيح ألقيت فى البحر.

ايطاليا (بومبيى) :

ثم تصل الباخرة ميناء نابولى فى الصباح الباكر ... ونستقل عربة سياحة إلى بومبيى Pompei عن طريق الأتوستراد حيث تبعد الميناء نحو خمسة كيلومترات قطعتها السيارة فى نحو نصف ساعة .

وبومبيى مدينة أكلها البركان عام ٧٩ ميلادية بها معبد أبولو الذى أنشىء سنة ٣٠٠ ق.م ومعبد جوبتر .

وثمة بيت وصفه المرشد — وهو إيطالى يتحدث الانجليزية فى غير طلاقة — بأنه «أحسن» بيت لما بجدران الحجرات من مناظر زاهية كأنها رسمت بالأمس



فى بومبى

القريب . وبه حجرة مائلة الأرضية لكى يتناول الملك الأكل مضطجعا على على أريكة ناظرا إلى حديقة تطل عليها الحجرة .

ثم انتقلنا إلى ما وصفه المرشد بأنه «أكبر» بيت . وفى تلك المنطقة وقعت معركة بين الاسكندر وداريوس . وفى المدخل تمثال تقليدى أصله فى نابولى للملك داريوس (٥٢١ ... ٤٨٥ ق . م)[1] خلفه ذيل حصان ليمثل الفروسية .

---

(١) يحكى المسعودى أن «دارا» كانت تسميه الفرس داريوس وهو أحد ملوك الفرس ، قتله الاسكندر المقدونى وكان ملكه إلى أن قتل ثلاثين سنة =

وفى الساعة الرابعة مساء تغادر الباخرة الميناء وأتذكر مثلا يقوله المهاجرون الإيطاليون فى الأرجنتين — كما رواه لى لبنانى يعمل فى الأرجنتين، Ver Napoli y morir أى أعيش فى نابولى وأموت ويذكر أن نابولى أهم ثغر حربى فى ايطالى وثانية ثغورها التجارية بعد جنوا .

ولعل حسن موقعها وطيب هوائها وجمال المناظر فيها جعلها مطمح الأجانب ، فقد توالى عليها حكم اليونان فالأوسكين Os ques فالرومان فالقوط فالبيزنطيين Byzantins فالنورمانديين — أو المجوس كما يذكرهم العرب — فالألمان فالأسبان .

إيطاليا (ليفورنو) :

وتمخر الباخرة عباب البحر لتصل إلى ميناء إيطالى آخر ... ليفورنو الساعة الثامنة صباح اليوم التالى حيث أعدت رحلة بالسيارة إلى برج بيزا .. فى الطريق · مصانع زجاج السيارات والكرستال : « قناة تسمى

=(مروج الذهب ص ١٧٥) وذلك حين طالبه بما كانوا يؤدونه من خراج إلى فارس على عهد بختنصر «وكان خراجهم بيضا من ذهب، عدداً معلوما ووزنا مفهوما وضريبة محصورة ، ولكن الاسكندر بعث إليه: أنى قد ذبحت الدجاجة التى كانت تبيض بيض الذهب وأكلتها ... ص٢١٦ وما بعدها .

ويستطرد المسعودى بأن الاسكندر تزوج من ابنة دارا بعدما قتله ولما قبض الاسكندر عن ست وثلاثين سنة رثته زوجته بقولها : ما كنت أحسب أن غالب دارا الملك يغلب» . ص٢١٩ ،

Sostente » نهر أرنو عليه كبارى ضخمة وقناطر لحجز المياه الفائضة وتحويلها إلى أراض أخرى.

ويلتبس فى أذهان الكثير أن برج بيزا المائل من عجائب الدنيا السبع والحقيقة أن لا فهذه العجائب: الأهرام - حدائق بابل المعلقة - تمثال «زيوس» الأولمبى - تمثال الشمس فى رودس - معبد ديانا فى أفسوس بآسيا الصغرى - الضريح العظيم فى هاليكارناسوس بآسيا الصغرى أيضا - منار الاسكندرية . ولم يبق من هذه العجائب غير أهرام مصر .

ومع ذلك فان آلاف السائحين من شتى الجنسيات يزورون البرج ويقفون أمامه مشدوهين . وهنا يحدثنا المرشد وهو شاب إيطالى كأنه نجم سينمائى أناقة :

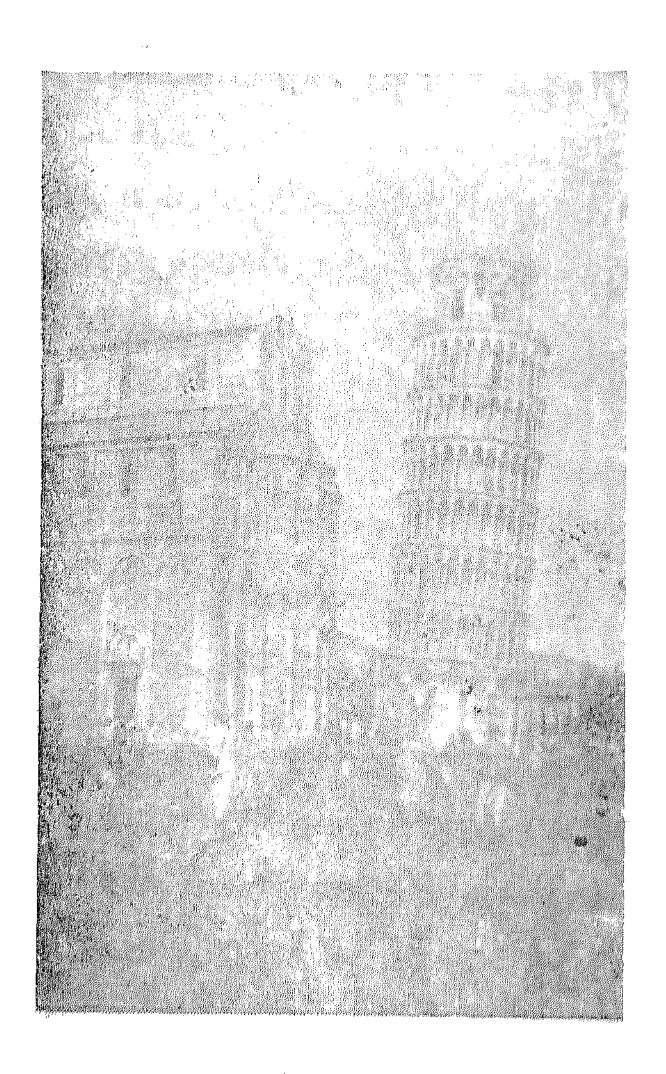
بنى البرج سنة ١١٥٣ م فى مدينة بيزا (pisa) أو كما ترد فى كتب الجغرافية القديمة بالعربية بيش أو بيشة تلك المدينة التى كانت مستعمرة يونانية ورومانية ، وبها جامعة من أقدم الجامعات فى إيطاليا سنة ١٣٤٣ . وهى نشيطة بصناعاتها وتجارتها .

أنشئ البرج ليوضع به جرس الكنيسة المقابلة له . ارتفاعه نحو ٥٤ مترا أساسه فى الأرض ثلاثة أمتار ، يميل البرج مليمترا واحدا كل سنة ، وعلى هذا فمن المتوقع أن يسقط نهائيا سنة ٢١٥٠ إذ أن الأرض المقام عليها رخوة .

وهو من ثمانية أدوار صعدت منها ثلاثة على السلم المكون من ثلاثمائة

درجة . الأول ٥٧ والثاني ١٣ ، الثالث ٣٠ درجة . وكل دور محاط بأعمدة طويلة تعطيه منظره الهندسي الرائع .

وقريب من البرج مبنى لتعميد الأطفال به من الداخل تماثيل تكاد تنطق . وبه صناديق لكل صندوق سماعتان . ومن الممكن أن تسمع بواسطة



برج بيزا

إحدى هاتين السماعتين صوتا باللغة التي تريدها من الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية أو الألمانية عن تاريخ المكان ووصفه . وذلك بعد أن تضع في ثقب بالصندوق مائة ليرة ايطالية .

وقد لاحظنا انتشار هذه الصناديق في بعض الأماكن السياحية الأخرى، وهي تغني عن المرشد لاسيما أنها مزودة بصور متحركة .

وفي جو المدينة الصحو قمنا بجولة حرة على قدر ما يسمح به الوقت . وقد توجهت إلى أحد البنوك في منطقة البرج لتحويل ليرات لبنانية إلى ليرات إيطالية . فاعتذر الموظف لعدم الاختصاص وأرشدني إلى البنك الذي ينبغي أن ألجأ اليه بالانجليزية فلما أخبرته أني غريب عن المكان قدم لي خريطة مطبوعة كان لها وقع طيب في نفسي .

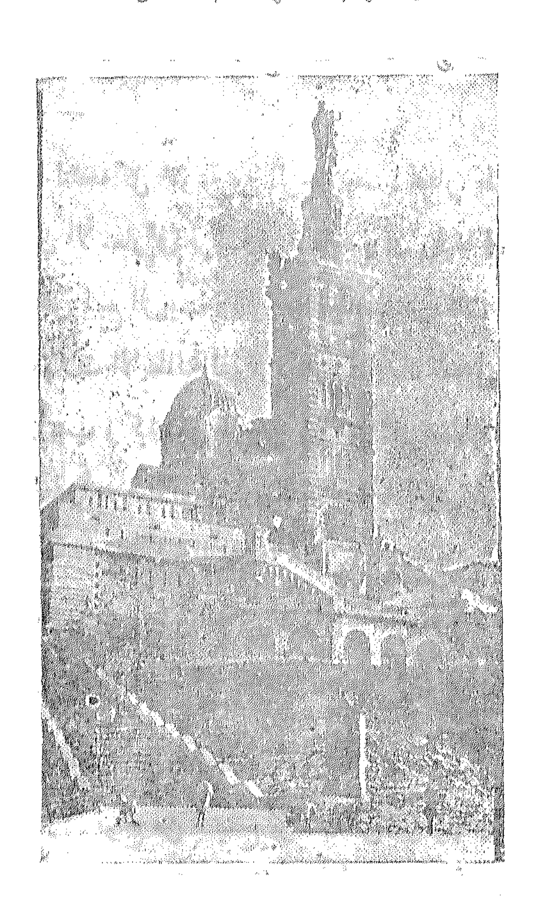
فرنسا (مارسيليا) :

وغادرنا إيطاليا نحو الرابعة مساء إلى ميناء فرنسي جميل وهام .. مرسيليا وذلك في صباح اليوم التالي .

تبعد مرسيليا عن العاصمة الفرنسية بمسافة يقطعها القطار في عشر ساعات تقريبا والطائرة في ساعة .

ولقد كانت مدة بقائنا في هذا الميناء نحو عشر ساعات زرنا فيها كنيسة سيدتنا الحارسة Notre dame de la Guarde والتسمية تدل على الاعتقاد بأن السيدة العذراء تحرس أهالي المدينة . والبحارة الذين كانوا يقدمون عليها للصلاة شكراً على نجاتهم من البحر . وقد بنيت في عهد نابليون الثالث سنة ١٨٥٠م .

وتقع الكنيسة على ربوة مرتفعة تظهر منها المدينة جميعـــا بمبانيها ذات الأسطح المثلثة الشكل بقرميد أحمر كأنها الشفق .



كنيسة الحارسة

ويرتفع تمثال العذراء والمسيح مغطى بطبقة مذهبة . وفى الداخل العذراء والمسيح أيضا يلبس تاج الشوك .

وفى خلال خمسة كيلو مترات — بعد الكنيسة من الميناء — أتيح لنا النظر

إلى جمال المدينة من العربة السياحية ، ولعل أهم المعالم قلعة ... في طريق الكرابيش .

في المحلات التجارية :

ثم وقفت العربة لتتجه كل مجموعة من الرحلة حسبما تختار طريقها لزيارة المحلات وقد تردد أن الأسعار في فرنسا مرتفعة غير أن رفيقاً في الرحلة لاحظ أن الثمن المعروض لبيع الزبيب واللوز والقراصيا فرنكات قليلة فذهب إلى محل لتحويل العملات الايطالية الى فرنكات ، وعاد للمحل ليقول للبائعة أعطيني كيلو من الزبيب وكيلو من اللوز وكيلو من القراصيا فبدا الاستبشار على وجه السيدة البائعة وأسرعت الى المخزن لتعد كيلو الزبيب ثم أسرعت ثانية لتعد كيلو اللوز وثالثة للقراصيا ولما نقدها الثمن كانت مفاجأة للسيدة أن المبلغ الذى يعرضه عشر قيمة الأشياء التى طلبها: إنه لم يساوم .. ولكن تبين أن السعر المعروض هو للمائة جرام .

وتوجهنا إلى رصيف يدعى Maroc أى مراكش ترسو باخرتنا فى موعدنا المحدد وقد أتاح صدفة فوج من السياح يركب من مرسيليا إلى بلدنا .. الاسكندرية ، وشباب من مصر كان يقضى فترة أجازته فى فرنسا .

ها هى الباخرة ترفع السلم فى طريق عودتها .

الناس يتحدثون بالباخرة عن شيء مؤسف ، سيدة تدخل محلا كبيراً يهولها أن تجد البضائع من غير بائع .. تمتد يدها الى زجاجة كولونيا .. تدسها فى الحقيبة ولا تتجه الى الخزينة لدفع الثمن .. تهم بالخروج ولكن تصيح فيها إحدى العاملات تتهمها باللصوصية وتضطر المرأة الى دفع ثمنها غرامة دون

أن تأخذها .. هكذا النظام بالمحل .. ترى هل العاملة اسرائيلية المنزع أرادت أن تتقدم من مصرية، أم أن رفيقة الرحلة أصابها طمع .. فأخطأت ؟ إن بهذه المحلات كاميرات وعيونا سحرية تلتقط ما يدور في المحل وتعكس على شاشة تليفزيونية تعمل بإشراف مختصين ولكن الغريب قد لا يعرف فيخطيء .. وسبحانك ربي من يحس أنك تراقبه لا يضل .

إيطاليا (جنوا) :

في صباح يومنا العاشر من الرحلة نعود إلى ايطاليا في ميناء لم نقف عنده في طريق الوصول ... جنوا ولعلها في اتساعها الكبير تعتبر ثانية المدن التجارية بحوض البحر الابيض المتوسط بعد مرسليا .

وترجع أهميتها - كما يقول الجغرافيون - الى وقوعها قرب ممر بوكتا Bocchetta أي الفم الصغير الذي يربطها بسهل لمباردى فصارت أهم منفذ لتجارة هذا السهل وجزء كبير من تجارة سويسرة .

ولقد كان قصدنا من جنوا شاطيء بورتوفينو الذي يبعد عن الميناء نحو خمسين كيلو مترا ويعتبر من أشهر الشواطيء العالمية . ولكني أرى أن الطريق اليه أروع وأجمل .

في الطريق دلنا المرشد السياحي على بيت صغير مكلل بأوراق الشجر في ميدان ذي مبان فخمة ، ولكن هذا البيت بتاريخه العريق يسمو على هذه المباني .. إنه بيت كريستوفر كولمبس البحار الإيطالي (١٤٥١ - ١٥٠٦م) مكتشف أمريكا .

.. مرقت السيارة من أنفاق طويلة تحت الجبل تخللها الضوء الصناعي فزادت جمالا ، ولقد ذكر المرشد أن الكوبرى الذى تسير فوقه العربات مقام على قاعدة طولها نحو سبعين مترا وترى من فوقه المدينه مكسوة بخضرة الشجر .

وبعد ساعة تقريباً من جنوة نعبر طريقا إلى قصر اكسلسوار حيث كان يقيم آخر ملوك مصر .

ونصل إلى بورتوفينو لنقضى وقتا مريحا ثم بدأنا العودة الساعة الحادية عشرة وأربعين دقيقة صباحا لنمر بالشوارع الفسيحة والتماثيل اللافتة للنظر بكثرتها وتماثيل عارية كأنها تتحدى تقاليد العصور الوسطى فى عصر النهضة الذى برع فيه فنان كما يكل انجلو (١٤٧٥ – ١٥٦٤ م) وليوناردود افنشى (١٤٥٢ – ١٥١٩ م) ولاينسى النحات فيها أن تعبر عن القوة والمجد فى غيرها .



مدخل مقابر جنو

لقد زرت فى رحلة سابقة مقابر جنواه . ولعلى أصفها – ولا أبالغ – إذا قلت إنها الحياة كما رآها فنانون .

لا يزال ثمة نحو ثلاث ساعات لمغادرة الباخرة الميناء ، الوقت ضيق جداً بعد تناول الغداء فاكتفيت بالمرور في الميناء وحواليها تقريباً من الرصيف الذى ترسو عليه الباخرة ، يلفت نظرى كثرة الاوناش المقامة على روافع أى تسير على أرض و هى مسلسلة الأرقام ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ فالبضائع من الباخرة إلى عربة النقل تنقل برفق وحرص .

وعند دخولى من باب الجمرك لافتة تقول «تنبيه ، بعد سبعين متراً الجمرك» للعربات تمهيداً لتفتيشها فلا تمرق قبل السماح لها بالدخول في الدائرة الجمركية ، ويحسن أن تكتب اللافتة بالانجليزية والفرنسية والايطالية .

ها هى الباخرة تأخذ طريقها جنوبا حذاء الساحل الايطالى لتقف في ميناء فا بولى مدة ثلاث ساعات ، الوقت ضيق . و كنت قد زرتها العام الماضى فلا حاجة الى التجول في شوارعها كثيراً .

و تستأنف الباخرة عبورها البحر ، وفى المساء نقضى وقتا ممتعا مع الرفاق حينا في حفلة سمر ، أو مع التليفزيون الايطالى حينا آخر فى عرضه الضاحك للوريل وهاردى وغيره .

وقد التقينا بشاب سويسرى يعرف ثلاث لغات أجنبية ليس منها العربية الا فى كلمات قليلة منها « أمل حياتى » و « أروح لمين » وهما مطلع أغنيتين لأم كلثوم ويسأله بعض الشباب المصرى أن يروى لهم نكتة بالفرنسية فيسأل أعن حياته الخاصة أو العامة ، وقبل أن يجاب ينبرى شاب مصرى ليروى له نكتة بالفرنسية ...لا بد من النكت.

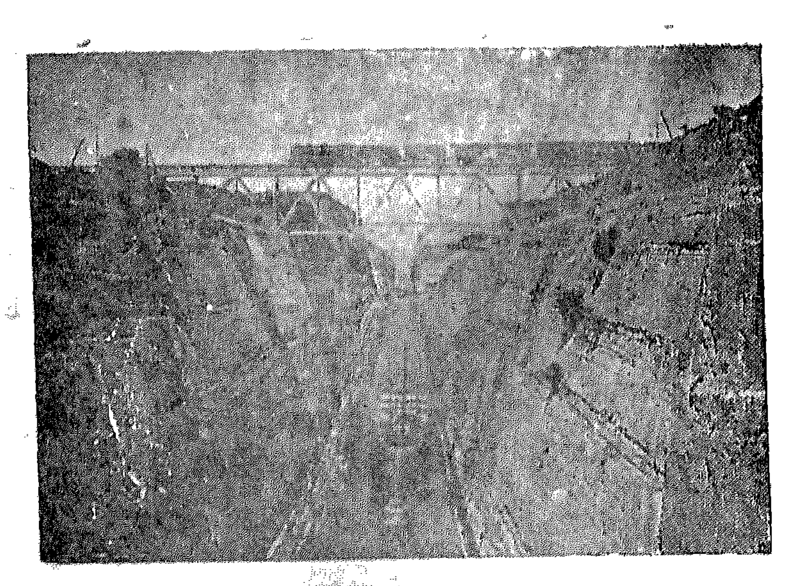
و كنت كلما رأيت هـذا الشاب السويسرى أرحب به بكلمة « أهـلا » العربية وشرحت له أنها مثل Welcome بالإنجليزية ، وأفضت فى الشرح أنها

من كلمة أهل أى family فإننا حين نقولها للقادم نقول لقد صادفت أهلا مما يدل على اعتزازنا بهذا القادم فننزله منزلة أحد أفراد الأسرة ، والشاب يسمع منى وقد بدا عليه الارتياح لهذه الخصلة فى الشعب العربى فكان كلما رآنى — وهو لايعرف اسمى — يقول : مستر أهلا .

اليونان (بيريه) :

وفى المساء تعلن مذيعة الباخرة أننا سنمر فى الصباح بقناة كورنثيا هذه القناة التى أعجبتنا ليلا نحرص على أن نراها أيضاً بالنهار ، وقد رأيت السياح الأجانب والمصريين كلا منهم يجتهد أن يأخذ مكانا مناسبا من الباخرة لتتضح له الرؤية .

شقت القناة سنة ١٨٨٠ م فى برزخ كورنثيا الضيق الذى يصل شبه جزيرة المورة بباقى اليونان طولها نحو ست كيلو مترات قطعتها الباخرة فى نحو نصف ساعة .



قناة كورنثيا

إن منظرها بالليل – فيما أرى – أجمل منها بالنهار فى جانبيها الصخريين اللذين تنبت عليهما بعض الشجيرات ويربط بين الجانبين جسر تمر عليه السكة الحديدية والسيارات .

ولئن شقت القناة لتيسير الملاحة للسفن الصغيرة لكى تجتنب الصخور وتنأى عن العواصف فى جنوب المورة ولتقصير المسافة بين الساحل الغربى لليونان وسواحلها التى على بحر إيجة ، فان الفائدة سياحيا لهذه القناة لايمكن إغفالها .

وبعد ساعتين ونصف من المرور من القناة رست الباخرة بميناء بيريه فى التاسعة وأربعين دقيقة صباحا ، ومن المقرر أن تغادر الباخرة الميناء الساعة التاسعة مساء اليوم نفسه وهذه أطول فترة تبقى فيها بميناء طوال الرحلة ، ولاعجب فالباخرة يونانية ، والبحارة يريدون أن يقضوا فى بلدهم فترة مناسبة ، ولعله قصد أن يتاح لأعضاء الرحلة فرصة كبيرة لمشاهدة المدينة ذات الطابع الديمقراطى التقليدى ، وتقدمها المستمر .

لقد كان أول غرض أن أزور المحطة البحرية الجديدة التى تضم الجوازات والجمرك . إنه بناء فخم ضخم ، ولكن مبنى الجمرك لم يكن قد استخدم واستخدمت مكاتب البرق والتليفون .

ثم التجوال فى شوارعها إنها نظيفة ، القمامة ملقاة فى أكياس نايلون كما هو الشأن فى إيطاليا ، تتمتع بالهدوء فيما يبدو .

هذه مقاه مليئة بالجلوس . إنهم من أرباب المعاشات فيما أظن ، فالساعة الحادية عشرة تقريبا أى وقت عمل أو لعلهم ينتظرون عملا فى المقهى .

. الرغبة فى شراء الهدايا أخذت حظها فى النفس ، فقد كدنا نصل الى الاسكندرية ولما أشتر شيئاً ذا قيمة تقريبا فى الموانى السابقة .

بم تشتهر اليونان ؟ انها زراعيا قليلة المساحة وأهم غلاتها الزراعية الطباق والزيتون والفواكه مثل التين والعنب البناتى – كما نسميه فى مصر – وهو يزرع عند خليج كورنثيا ويجفف إلى زبيب ، ويسمى بالإنجليزية currents مأخوذاً من كلمة Corinth اسم الخليج بالانجليزية .

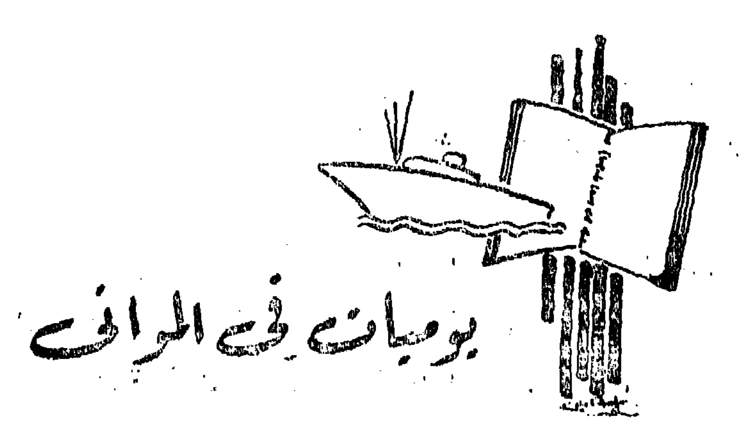
فاشتريت زبيباً وتيناً مجففا وقراصيا بكميات متواضعة ووضعتها فى حقيبة اشتريتها من اليونان أيضا وهى مشهورة بدبغ الجلود .

وتوجهت الى الجمرك لأعرض فتح الحقيبة على حرس الجمارك – كما نفعل فى مصر – فاستغرب منى أن أفتحها فذهبت إلى موظف آخر فلم يكن أقل استغرابا . . كل ما طلبه أن أطلعه على جواز النزول الى الشاطىء .

وينتهى يومنا الآخير فى هذا الميناء لتواصل الباخرة عبورها مارة بجزيرة كريت ، نحن فى اليوم الثالث من الشهر العربى . . رمضان المعظم نتناول طعام السحور وكلما اقتربت السفينة من الإسكندرية زاد حنيننا إليها . . عيوننا لا تطاوعنا على النوم ، نريد أن نرى أثراً ولو من بعيد يدل على بلادنا كان معنا شباب مسافر من مصر وأقسم ألا يعود فاذا هو يعود .

تنتهى الرحلة فى ٢٥ / ١٠ / ١٩٧١ قد تغيب المناظر . ويغيب الأشخاص ويبقى أن بلادنا لا تقل روعة عن الموانى التى زرناها واستمتعنا بها ، إنها كنوز أثرية يجب أن تنفض عنها غبار الأهمال ويطلع عليها الناس جميعا فى فهم عميق ولا بد أن نبنى المستقبل امتداداً لماضينا العظيم .

المقالة الثالثة



«يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير».

الحجرات ١٣

يوم ... قبل السفر :

أعلنت شركة الملاحة عن عشر رحلات حول البحر الأبيض المتوسط تبدأ أولاها أواخر مايو وآخرها في ٢٥ سبتمبر ١٩٧٢... فقلت في نفسي: أجرب البحر في ٥ يوليو لمدة ١٥ يوما ، وتم الحجز داعيا الله التوفيق للخير أينما كان ووقتما كان .

ما أن يعلم الاصدقاء والمعارف بالسفر إلى الخارج حتى يطلب أحدهم أو إحداهن شراء أي شيء له . كاميرا . باروكة . دواء للروماتزم أو الصداع دون أن يعرف الامكانيات المادية للمسافر ، وقدرته على كثرة الاحمال أو اقتناعه بها ولهذا ربما كان من الأوفق عدم إعلان السفر إذا خشي الاحراج .

اليوم الاول :

يدخل صالة جمرك الركاب بالإسكندرية فيظن بعضهم أني منتدب للعمل به ، ولا يكاد يصدق أني أحمل حقيبتي للسفر فينهض زميل بكتابة الأقرار

مبالغة فى الحفاوة والثقة ثم أوقعه له ... وتتم الاجراءات فى سهولة ويسر للمسافرين عامة .

يتأخر وصول الباخرة فننتظر ساعات وقد قيل فى سبب ذلك أنها اصطدمت فتدمر ورها بقناة كوريانثيا إذ لا يكاد يبقى شبر فراغ عند مرور الباخرة منها .

ومن الركاب الذين نزلوا منها سيدة تستقبلها أخرى على الرصيف بعناق طويل حار ... لقد تصورت أن بحقيبة يدها شيئاً تخفيه ، وأن الحقيبة ستبدل بها حقيبة الأخرى فانتظرت مليا ولكن حديثاً طويلا جرى بينها وأعطيت الاوامر لنا بصعود الباخرة قبل أن ينقض الحديث ... ترى هل أستطيع أن أنسى وظيفتى ... أو أنها ستغلبنى على أمرى فى رحلة لا تخلو من الشوك ؟

الدرجة السياحية بالباخرة تبدو سيئة فتحتج بعض السيدات فيصعدن مع الأزواج ليدفع فرق الثمن للدرجة الأولى لهن ويظلون هم بالسياحية غير أنى أرى أن التكيف مع الأجواء الجديدة من حيث الأكل والنوم وعادات القوم جدير بأن يكسب القائم برحلة متعة التجديد ... وبعد نصف ساعة من قيام الباخرة يبدأ دوار البحر شديداً على من لم يجربوا البحر وكأنه نذير بأن الرحلة جميعاً دوار ولكن الرحلات كالكتب قد لا يكفى أن تقرأ صفحة لنحكم على الكتاب جميعاً ...

اليوم الثانى :

مضى هذا اليوم يسأل بعضهم بعضا عن حاله بالأمس ، وتبدأ دائرة التعارف فى الاتساع ، وفى لقاء التعارف تسألنى سيدة عن مهنتى فقلت : ماذا تظنين ؟ قالت : طالب ... أجمل الأمانى عندى أن أكون طالب علم حتى الوفاة .

فرددت: هو كذلك . ولكن ماذا لو علم أنى مأمور بالجمارك ؟! النتيجة فقد الثقة بقولى فيما بعد وقد يظن بعض أنى فى مهمة رسمية للابلاغ عن المهربين، فلأذكر صراحة مع التلطف الذى يكسب الأصدقاء .

ها هى الباخرة تتجه شمالا إلى جزيرة كريت أكبر الجزر اليونانية التى إشتهرت فى التاريخ بقصر التيه أو اللابرنت ومشرعها مينوس .

اليوم الثالث :

ترسو الباخرة بميناء بيريه ... على الرصيف المجاور الباخرة المصرية « سوريا » والنسر العربى يحمى جوانبها . . شىء تغتبط له بحق ، ونستقل السيارات إلى أثينا العاصمة لنزور أشهر آثارها معبد الاكربول حيث عديد من السياح من مختلف الجنسيات كل يحمل كتابا ليعرف تاريخ كل جيزئية ووصفها العلمى ، وملحق بالمعبد متحف يضم بعض التماثيل رمزا للحضارة الأغريقية :



البنايات العفيفات

وفى العودة تقف السيارة عند محل لبيع المصنوعات للسياح من البائعين فيه طلبة جامعيون من مصر. وظاهرة وجود المصريين والعرب عامة لافتة للنظر فى اليونان وثمة مقاه متجاورة كأنها خصصت لهم .

وكنا نود لو نعرف شيئاً عن أخبار بلادنا ، وقد وجدنا جريدة «الأهرام» فقط بثمانى دراخمات «والانوار» اللبنانية . . إنها الرباط الثقافى الذى يشد العربى فى غربته إلى بلاده فضلا عن أنها ترد على بعض المزاعم التى يرددها العدو ، ولقد وددت لهذا لو تكثر الصحف العربية فى بلدان أوروبا .

وبعد تجوال انتهى بى ورفيق من الرحلة إلى مقهى وما أن طلبنا الكوكاكولا وأحضرها النادل حتى طلب ثمنها قبل أن نشربها . . تصرف فردى أم ظاهرة لانجدها فى مصر حيث يجلس « الزبون » ساعات ثم هو الذى يطلب النادل لينقده الثمن ؟ . . ولعل للنادل اليونانى عذره أو وهمه بأننا سنقوم عن المقهى خلسة .

ونعود إلى الباخرة لانحس فرقا كبيرا بين بيرية وأحياء من الاسكندرية ، أن الاحساس بعدم وجود فارق معرفة لها لذتها ، وليس شرطاً فى الرحلات أن ترى كل ماهو مغاير لما فى بلدك . . هذه الفكرة تغيب عن الأذهان فتنغص على بعض الأفراد حياتهم فى الرحلات .

اليوم الرابع :

يزداد التآلف بين رفاق الرحله وإذا كان الشاعر العربى يقول :

أجارتنا إنا غريبان هاهنا   وكل غريب للغريب نسيب

فان صلة نسب الغربة قد ربطت كل فرد بالآخر وليس بجارته فقط إلا

ما قد تجد من نظرة غيرة من سيدة لأخرى ، أو رغبة غـير معلنة في شراء الجديد الذي لايتاح للآخر معرفة المحل ليشتري منه .

وقد تميزت الرحله بكثرة الأطفال رغبة من الأمهات في احتضان أبنائهن والأطمئنان عليهم وعندي أن الطفل قلماً يدرك قيمة الرحلة وفلسفتها بل أنها قد تضره إذا لم يركز الآباء على المعايب الصارخة وبيان العلاج الصحيح لها، فالشاب الذي يرقص مع صاحبته بالباخرة وأثر الشهوة في عينيه ولمسات يديه صورة سيئة للطفل الناظر إليه إذا لم تذكره بأن الرقص المبتذل يدل على فراغ نفسي وشعور بالضياع .

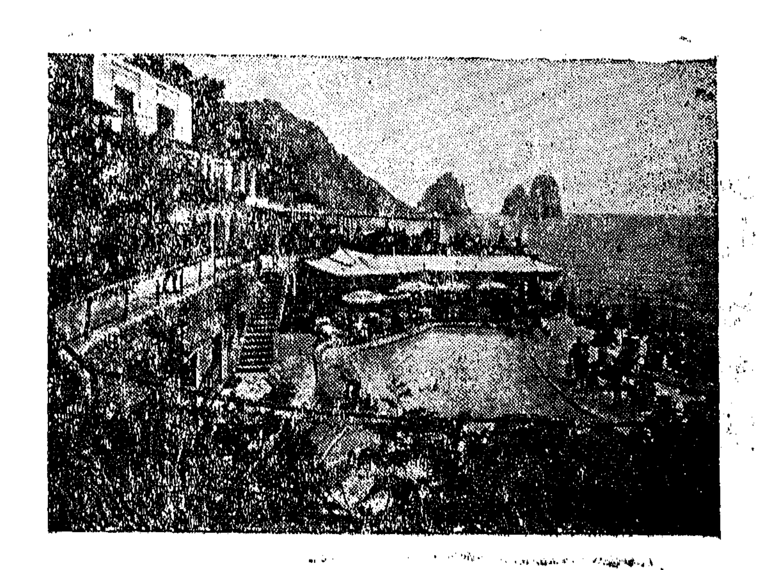
اليوم الخامس :

تصل الباخرة نابولي [١] وهي تقع على خليـج نابولي الجميل ومنها قصدنا جزيرة كابري بمركب آخر حيث المدة ساعة وقليـل يطالعك في البـدء بركان فيزوف أو vesuvio الذي تشتهر الأراضي المجاورة له بالخصب للمواد المنصهرة التي تخرج منه .

يقف المركب فترة وجيزة في سورنتو Sorrento جنوبا وهي شبه جزيرة صخرية ممتدة من جبال ابنين وقد اقتطعت منها كابري بارتفاع ٥٦٠ مترا [٢] منظر رائع للانطباعة الأولى خاصة .

(١) أسس هذه المدينة منذ قديم الأغريق وأسموها نيابوليس Neapolis أي المدينة الجديدة ، والراجح أنه حرف الاسم إلى نيابولي — حيث تنتهي الاسماء عند الايطاليين بحرف متحرك ... ثم نابولي .

(٢) مشاهدات سائح في الممالك الاوربية ص ٧ — عبدالوهاب أبوالعينين ، ط . الحديثة بالقاهرة .



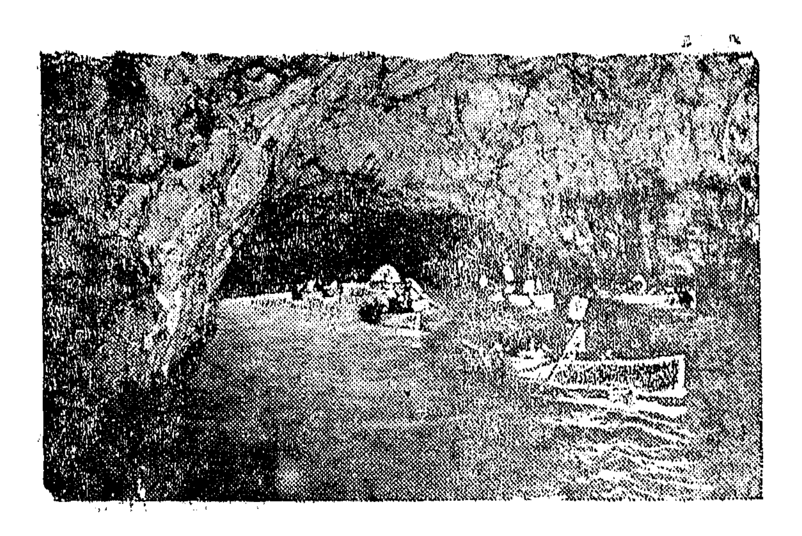
كابرى

ثم اتجه المركب الى المغارة الزرقاء GROTTA AZZURRA وهى مغارة مائية واطئة الارتفاع عند المدخل حتى ليضطر الراكب فى قورب صغير أن يجلس أرضا بدلا من مقعد القارب ثم ينتصب طولا بعد المدخل وفيه تبدو الماء صافية الزرقة جداً،طولها نحو ١٧٥ قدما وعرضها نحو عشرة أقدام(١).

اليوم السادس :

نمضيه كله بالباخرة ، بعضنا يتحدث في شئون عادية ، وقد سمعت أن مغارة لبنان أروع من تلك فى كابرى ، الأمواج تعلو وتهبط فتلجأ بعض السيدات والأطفال إلى ترانيم دينيه عملا بما نسب إلى السيد المسيح غنوا ورنموا ولكن الباخرة كأنها تزداد طربا فتزداد اهتزازا ونسمع من يقول إذا كان تمايل الباخرة

(١) جولة فى ربوع أوروبا بين مصر وأيسلندة ص ٢٤ ـ محمد ثابت ، ط . الرحمانية بمصر .



المغارة الزرقاء

من المقدمة والمؤخرة فلا خوف ، أما إذا كانت على الجانبين يمنة ويسرة فربنا يستر ، وفى أمثالنا « أعطنى عمراً وارمنى البحر » ولكن هذا المثل قلما يخطر بالبال فى وسط البحر حقيقة.

اليوم السابع :

ها هى مرسيليا . بعد زيارة الكنيسة الحارسة . . ويبدو أنه لا أثر دينيا له قيمتها بالمدينة ـ يتجه الفوج إلى المحلات العامة للشراء ، لقد كان فى تصور بعض أن المحلات تهتز كما كانت الباخرة أمس . . الأسعار تبدو مرتفعة ولكن لا يشك أحد فى جودتها إذن لا بأس من الشراء القليل .

نظرات علوية عابرة على الكورنيش . الجو ليس غريبا تماماً ، فهو يشبه اسعانلى أو محطة رشدى بالاسكندرية فى بعض الأحيان ، وهو فى نظر بعض يشبه بلطيم .

وعند عودتى إلى الباخرة أتوسم فى بعض المارة معرفتهم اللغـــة العربية فأسألهم عن الطريق اليها فيجيبونى بعض بعربية مكسرة . . إنهم جزائريون

عرب ولكنهم لايفهمون مني ولعلهم يصفون لهجتي كما وصفت لهجتهم ، فألحظ رجلا زنجي البشرة وأكلمه الانجليزية ، ولكنه لايعرفها فيصطحبني إلى بار قريب فاذا فتاة به تطالع في صحيفة في باب بها باسم « أخبار الميناء » فتعرف أين ترسو الباخرة وتخبرني ويتطوع الزنجي أن يوصلني بعربته ، وركبت معه .. خلق حميد دعاني أن أعرف جنسيته وقد حسبت أنه من جنوب أفريقيا ولكنه قال : فرنسي ولد بفرنسا ثم هو يسألني : أأمريكي أنت ؟ فقلت : مصري ، وفي ذهني قد يختلف لون الناس وألسنتهم ويبقى الإنسان فلم إذن يتحارب الناس من أجل عصبية ضيقة ؟

وعند الميناء ألتقي بشاب مصري يتدرب على أعمال الجمارك بفرنسا فيخبرني أنهم يأخذون بالإقرار الشفهي وأن في مطار باريس بابين يدخل من أحدهما من لايحمل شيئا يستحق الضريبة ، ومن الآخر من يخضع لضرائب[1] وأسأله ماذا يريد من مصر فيرد : أن تبلغ سلامي إلى أقاربي . الرابطة الأسرية قلما يوهن من عراها بعد المسافة ، بل وعلى رصيف الميناء تتم خطبة شاب مصري يدرس الدكتوراه في فرنسا بفتاة من الرحلة . جميل ألا تذوب الشخصية المصرية بتقاليدها الأصيلة في بلد أجنبي فيه كثير من مغريات الجنس .

وبرغم أن الانسان لا يمكنه إنكار التقدم الحضاري لدول أوربا عامة فان التفاوت بين الناس ملحوظ ، ففي مرسيليا من عديد السؤال ، ومن يعزف بالاوكرديون بقصد التسول ، وقد علمنا أن أسماء هؤلاء المتسولين مسجلة بسجلات الحكومة ، وبعضهم من مشوهي الحرب لا يشاركهم في هذه المهنة دخيل والا تعرض لمطاردة السلطات المختصة ، والفرق بين المتسول الفرنسي وبين زميله في مصر نظافة الملبس .

(١) أتبع ذلك النظام في مطار القاهرة الدولي فيما بعد .

ومن المناظر التي تشد الانتباه في مرسيليا بينما نراه مألوفاً في قرى مصر حمار أسود – لعله الوحيد – استغله صاحبه لعرض البضائع فوقه في شارع كبير أمام محل Baze لقد حلت السيارة محل الحمير ولكنك تشاهد السيارة فلا تثير عندك ما يثيره شكل الحمار إذ يقف كأنه مغلوب على أمره ، عينه على الأرض إن شعور الشفقة قد يغلب الإنسان في هذه اللحظة .

اليوم الثامن (جنوا) :

في الصباح تتراكى الباخرة في جنوا وهي مدينة تقع على خليج جنـوا جنوبي جبال ابنين The Apennines وتمتد ٢٥ ميلا على ساحل البحر الأبيض المتوسط فهي تدخل في نطاق الريفيرا الايطالي .

وهي تمثل الرأس الجنوبي للمثلث الايطالي الصناعي حيث يمثل الرأسين الآخرين ميلانو وتورينو وبرغم شهرتها ببعض الصناعات كالآلات الهندسية والصابون والمنسوجات فان السياحة تعتبر صناعة هامة تنطلق من جنوا وهي أجمل في نظري من نابولي وأكثر عمارة بالفنون ، عدد سكانها نحو ستمائة ألف وبها شوارع ضيقة ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي .

إن موعدنا شاطيء بورتوفينو وهي مصيف عالمي على بعد ساعة وربع من جنوا بالسيارة السياحية . في الطريق تشاهد ميداناً به أوبرا ، وتمثـــال غاريبا لدي (١٨٠٧ ـ ١٨٨٢ م) .. ، نافورة ، البورصة . هـذا ميـدان آخر فيه تمثـال يمجد الذين سقطوا في الحرب العالمية ، الشعلة المضيئة أمامها حديقة نقش الزرع فيها بواخر تحية لكولمبس .

بعد جنوا مدينة « دورباست » حيث شارع قديم من العهد الروماني ، وأسفل خط سكة حديد من بيزا إلى روما .

ثم مدينة بيرلى pierlli ويذكر هذا الاسم على بعض مصنوعات المطاط كالممحاة وإطارات السيارات ، ثم خليج الجنة ونرى شجرة « سيبرس » وتسمى الابدية إذ تعمر خمسمائة سنة و هى تشبه الصنوبر .

ثم مدينة جديدة كان الحلفاء قد دمروها فى الحرب العالمية الثانية ولم يبق من بيوتها القديمة غير ثلاثة (١) .

ونلحظ أن بجوانب التلال مدرجات غرست أشجاراً ، الفسطل على المنحدرات ذات الانخفاض الكبير ، والاشجار المخروطية على المنحدرات المرتفعة عنها .

هناك مدرسة للملاحة فى مكان حيث المياه عميقة بالبحر وعطة لتليفزيون. ويسمى البلد « كازامو ليا » أى بلد السمات لأن أزواجهن يقضون حياتهم فى البحر وقد ذكر المرشد أنه وزع فى احتفال أقيم فى آخر مارس ١٩٧٢ نحو خمسمائة كيلو سمك مجانا . الجبال هنا تسمى ابنونى كما تنطق بالإيطالية. ثم مدينة القديسة مرجريت .

ومن الآثار التاريخية على الطريق قصر الملك فرنسوا الأول سنة ١٥٢٥ بعد أن خسر المعركة مع الاسبان .

وقد مررنا بشاطىء آخر يدعى « مارابجى » ونلحظ الهدوء والوداعة سمة غالبة على هذا الشاطىء وبور توفينو وربما كان السبب النظرة على البعد. أو بعدها حقيقة عن المدن العامرة بالسكان .

---

(١) شبيه بهذا كنيسة « القيصر فيلهلم » فى برلين الغربية حيث تقف هذه الكنيسة وسط المبانى العصرية الأنيقة تحمل آثار القنابل والنيران التى ألقتها أساطيل الحلفاء الجوية خلال الحرب العالمية الثانية . .

الأهرام فى ٢٣ / ٧ / ١٩٧٤ .

اليوم التاسع (نابولى) :

تتجه الباخرة جنوبا بحذاء الساحل الإيطالى إلى نابولى حتى إذا مارست بالميناء كانت الرغبة ملحة فى التجول بالمدينة فليس ثمة برامج محددة لزيارة ما، الملابس خفيفة إذ أن الصيف يتميز بالحرارة طول امتداد الساحل . وفى نابولى ٢٤° مئوية .

ويرغم أننا نقترب من منتصف يوليو فإن المطر يسقط بغزارة الشتاء نحو ساعة مع شيء من البرودة لقد ضايق هذا البعض ولكنى سعدت به لغرابته بالنسبة لجو مصر .

الطرق معبدة ليس فيها حفر تكون مستنقعات . واللافت للنظر أن الايطاليين اشتهروا بانشاء الطرق المعبدة منذ عهد الرومان ولايخفى أن تعبيدها بجودة مما يخدم السيارات التى تشتهر بها إيطاليا (١) .

وقد قيل أن ٨٥ ٪ من الايطاليين يملكون سيارات خاصة ومما يتصل بهذا الصدد أننا لاحظنا احترام قادة السيارات المشاة. إذ تقف السيارة على بعد أمتار لتلويح للسائر أن يعبر الطوار فى أمن . وقد ساعدت الأنفاق على تخفيف حدة المرور بوجه عام .

إن جو المدينة «المادى» - إن صح التعبير - يوحى الزائر أول مرة بمبانيها الضخمة أنها مدينة تجارية، وهى كذلك إذ يوجد بها مصانع للآلات الهندسية

---

(١) ومنها «فيات» اختصارا لأسم المصنع بالإيطالية .
Fabrica Italiana Automobili Torino

والجلود والقطنيات والجوت وإعداد المواد الغذائية كعلب الخضر والطماطم وصناعة المكرونة وإستخراج الزيتون فضلا عن مصانع لتكرير البترول وأحواض لبناء السفن .

اليوم العاشر :

لقد بدأ الركاب يلبسون الجديد كأنما للاطمئنان إلى شهادة الغير بحسن إختيارهم وتحاشيا لدفع الضريبة الجمركية عنها عند العودة إلى مصر .

حديث ذو شجون عن انطباعات المشاهد إلى نابولى . قد يراها البعض عادية أو يتوقع الملل من البقاء فيها كثيراً . ويراها آخرون أنها الحياة .

لقد حكى بعض الرفاق ماشاهدوه من مناظر مؤذية وتدل على الفقر فى بعض الأحياء من نابولى ويتساءلون لماذا لم نلتقط هذه المناظر صوراً فوتوغرافية كما يفعل السائحون عند قدومهم مصر إذ يعمدون إلى التقاط المناظر غير المستقيمة .

وعندى أن العربى إذ يلتقط أحسن المناظر فلكى يعتز بها فى نفسه . أما السائح الذى يلتقط أسوأ المناظر فى بلادنا فانما يعبر عن نزعة عدوانية أو قل استعمارية .

وينبغى ألا نعيب على سائح التقاط منظر مؤذ مادمنا لم نعب على أنفسنا عدم إزالته . فما نراه من مناظر فى أوربا ولبنان يوشك أن يضيع بهاؤه وجماله إذا غطاه غبار النسيان أو الإهمال .

والمناطق الجبلية المزروعة والمنسقة فى إيطاليا مثلا تثير بهر السائح فى المرة الأولى خاصة غير أننا نظن أن الإيطالى فى زيارته لمصر قد يبهره انبساط سطحها وعندنا من الجبال مثلا المقطم وينبغى العناية به وبالمناطق السياحية فى طول البلاد وعرضها .

وأهم من التنظيم السياحى تغيير السلوك البشرى بما يدعو إلى الاعجاب والاحترام للفرد والجماعة على السواء فى الداخل والخارج .

لقد رأينا المحلات الكبيرة مثل ستاندا وأوبيم فى إيطاليا . وباز فى مارسيليا تقوم على اختيار المشترى للمشتريات ثم التوجه بها إلى الخزينة للدفع حيث يستغنى عن البائع فى أكثر الأحيان .

الباخرة لاتزال تشق طريقها وأتمثل بيت الشاعر :

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى

الله أكبر . لقد خلقت الجمال ياإلهى لتنطبع نفوس الناس به فلم يلتفت إليه أناس وانحصروا على أنفسهم فى ظلمة مقيتة ليشدوا غيرهم إلى هاوية الرذيلة غيبة ونميمة .

قبل الثامنة صباحا ، شمس طالعة من جهة وغيوم من جهة أخرى ، والمطر ينزل رذاذا وقوس قزح كأنه قفز من سطح البيوت على جزيرة بمرأى البصر ليلتقى طرفه الآخر بالبحر ... وتنتهى الحياة فى الدنيا . وفى وقت صلاة الجمعة يؤدى المصلون الصلاة جماعة على ظهر الباخرة بعد خطبة قصيرة .

اليوم ١٤ يوليو وهو يوافق العيد القومى لفرنسا يحتفل الفرنسيون فى الباخرة به بينما احتفل المصريون بطريقتهم الخاصة وكانوا بين الحين والآخر

يقولون Vive La France أى تحيا فرنسا ولا أحد من الفرنسيين يسمعهم ولكنها روح المحبة بين البلدين تملى على أهل مصر سلوكهم .

اليوم الحادي عشر (بيريه) :

واصلت الباخرة سيرهـا عبر البحر مارة بمضيق مسينا ثم جنوب اليونان مارة بقناة كورنثيا حيث العمق ٢٤ قدما وأعلى موضع ٢٢٠ قدما . وتذكر المذيعة بالباخرة أن أول يخت مر بالقناة كان للملك جورج واليوم نرى أن ٢١ أبريل ١٩٦٧ هو تاريخ الحاضر الذى تعيشه اليونان معلن على الجدران (١)

مررنا بالقناة من الساعة ٦٫٤٥ ص إلى ٧٫٣٠ ص يحسب من العمر بحق. تصل الباخرة ميناء بيرية لقد قرر القبطان إجراء إصلاح فى المحرك . ولهذا ستمكث بالرصيف اليونانى يومين وليلة . أتوجه لاستطلاع العمل بجمرك

---

(١) أعلنت الجمهورية رسمياً فى ١٩٧٣/٧/٢٩ برياسة بابا دوبلوس حتى وقع الانقلاب العسكرى فى ١٩٧٣/١١/٢٥ وأعلن أن الجنرال فيدون جهز يكس تولى رياسة الجمهورية . أما ٢١ أبريل ١٩٦٧ فهو يوم نجح بعض الضباط فى الاطاحة بحكومة كانيللوبولوس وأعلنوا أن هدفهم منـــع سقوط البلاد فى أيدى الشيوعيين وأبعدوا الملك قسطنطين وألغوا دستور ١٩٥٢ ، وقد حاول الملك فى ١٩٦٧/١٢/١٣ القيام بانقلاب مضاد ضد الضباط ففشل الأمر الذى اضطره إلى الفرار من أثينا إلى إيطاليا فى اليوم التـالى بعد أن أسندت الحكومة إلى بابا دوبلوس ثم مالبثت الأمور أن تطورت وأعيد الحكم المدنى فى اليونان فى يوليو ١٩٧٤ .

اليونان على قدر الامكان ، نظام التخليص الجمركى يقوم به الحانوتى . والذى يقوم بتفتيش حقائب الركاب controler خريج كلية التجارة . وقد لاحظت وجود سيدة تقوم بالكشف وعلمت أنها بدل زميل باجازة إذ يقوم بمداومة التفتيش المذكور فقط . والغريب أنى رأيت أحد هؤلاء العاملين يفتش حقيبة يد لسيدة الأمر الذى لايحدث بالجمارك فى مصر .

جولة قصيرة بالمحلات أشتريت صفيحة زيت زيتون صغيرة . كان لابد أن اشترى شيئا من صنع اليونان خاصة فلم أجد ما يجذبنى مثل عروسة «غير بشرية» وتمثال فينوس . وكارت بوستال للاكربول .

ولا بأس أن نركب المترو من بيريه إلى آخر محطة وتدعى كفسيان — بنون خفيفة النطق — وتستغرق المسافة نحو ساعة نمر فيها بمحطات كثيرة منها : تزيان (بها آثار) — أمونيا — فكتوريا — نيا أيونيا — ايرا كليون (وهى غير ايرا كليون الميناء) — أما روسيان (بهـا بيوت أنشأتها جمعية اليونانيين الذين نزحوا من مصر) .

من بعيد تلاحظ شجر الزيتون فى بعض المناطق بكثرة توحى بالاهتمام به . وقد علمت أن بعض الاغانى اليونانية تنوه به كما يتدوجيل بتدلى وجبل آخر يدعى «ايغاليو» ومعناها باليونانية القديم — بالكسر — .

حتى إذا ما انتهى المترو إلى موقفه الأخير ينزل الركاب ليسلموا تذاكرهم لعامل المحطة . وقد لحظت أن المفتش لم يراجع كل التذاكر بالمترو وانما أكتفى بالمراجعة اختيارا .

وفى كفسيان محل كبير «أخوان فارسو» بدأ صغيراً لبيع اللبن سنة ١٨٩٢م

وتضخم حجمه فأصبح كديليس بالأسكندرية — وبداخله حديقة منسقة وفي كافسيان حديقة روعة في النظام والنظافة . وقد ذكرت على بعض الأشجار أسماؤها ليزداد المشاهد علما . غير أني لم الحظ دورات مياه عامة فالمضطر عليه بالمقاهي وذلك لنقص المياه في اليونان ... الأمر الذي طالب بعض من أجله بانشاء دورات المياه في الشوارع خدمة للأجانب .

عودة إلى الباخرة لأطمئن إلى زملاء الرحلة . وأتناول وجبة خفيفة وأتساءل ألم تمطر في بيريه كما أمطرت رذاذا في كفسيان فيأتيني الجواب نفيا لقد منعني المطر أن أبقى فيها طويلا برغم طيب جوها في الصيف . أما في الشتاء فهي شديدة البرودة .

تكملة الجولة في بيريه حتى الثانية صباحا وبرغم هذه الساعة المتأخرة فإن التاكسيات كثيرة لنقل الخارجين من البارات أو الحفلات أو السائرين بلا هدف حتى يصيبهم السهر .

من بعيد صاحب جراج لا أكاد أرى أحداً غيره وقد اختلطت على معالم المدينة ... أقترب منه لأسأله بالإنجليزية فلا يجيبني . إنه لا يعرفها : فقلت له . تولونيا وأقصد به الجمرك باليونانية . فلا يعرف لقد أخطأت في نطق الكلمة ولم يكن عنده وقت ليعرف أن الغريب في هذه الساعة لا يسأل إلا عن مكان البواخر . أن صحة الكلمة تولونيو . فلما ذكرتها وجدت من يرشدني .

اليوم الثاني عشر :

في هذا اليوم توجهنا إلى مصيف «سونيون» وهو يبعد عن بيريه نحو ستين كم قطعتها السيارة في ساعة ونصف تقريباً . حيث استمتعنا بالسباحة

على مياهه الصافية بلا عمق كبير. ويبدو أنه لبعده لا يؤمه غير السياح وبعض ذوى اليسار من اليونانيين .

وقد ألفيتني أضرب صفحا عن تدوين ماتقوله المرشدة بعد أن بدأت حديثها بأن بيريه ثالث ميناء فى البحر الابيض المتوسط بعد مرسليا وجنوه فعلا صوت الرحلة . الاسكندرية فقالت مهم: نعم الاسكندرية .

هل هو نسيان منها أو النزعة القومية تجعلها تخطىء؟المهم أنها افقدتنا الثقة ببعض كلامهافى موقعها الإرشادى .

لقد مررنا بشواطىء عديدة لا تتمتع بالرمال كما تتمتع شواطئنا وفرة وجمالا . وأكثر مايكون استلقاء المستحم أو المستجم على حصى أو صخرة بلازحام .

ويلاحظ أن المبانى اليونانية بوجه عام فى مناطق معينة قليلة الارتفاع وقد قرأ لى من يعرف اليونانية فى صحيفة أسبوعية أنه فى المدينة ستغطى واجهات البيوت بالالمونيوم .

الساعة الرابعة مساء موعد إبحار الباخرة . وحديث عن انطباعات الرحلة وكيف تقدمت اليونان فى سنوات قليلة تقدماً ملموساً ويبدو أنها أفادت من ثورة ٢٣ يوليو فى مصر من بعض الوجوه مع الاحتفاظ بصداقة دول غرب أوربا وأمريكا . وأرتفع فيها مستوى المعيشة . فالحلاق يتقاضى مثلا ثلاثين درخمة أى أربعة أضعاف مايتقاضاه زميله بمصر كما حدثنى يونانى أحيل إلى المعاش وهو يعمل فى مصر . وعند زيارته لليونان لفت نظره كثرة بناء الكنائس بما لا يعدله بناء المدارس مثلا معللا ذلك بأن رجال الدين يتقاضون

مرتبات عالية من مراسيم الزواج والجنازة . ولهذا فقد كثر عددهم قلت في نفسي : خير من الإلحاد . وأضاف أن الدولة تعنى بالطفولة عناية عظيمة . فاتجه ذهني إلى ما رأيته من كثرة المقاعد والاراجيح على الكورنيش . وأن كان شاركهم في الجلوس عليها والاهتزاز بها الكبار .

اليوم الثالث عشر:

تواصل الباخرة سيرها عابر جزر اليونان . وفي نحو الساعة السابعة صباحا تمر بجزيرة رودس . وقد قيل لنا أن أكثرها فنادق بحيث السائحون كثير . وأجرة الليلة دولارا أمريكيا أي تزيد عن عشرين جنيها مصريا . البحر هادىء وفي هدوئه جمال . وفي ثورته أيضاً ، لأنه صادق في التعبير عن الجو المحيط به . وهكذا شأن كل كبير وعظيم ... كالبحر... تشبيه يذكره الناس لاتساع لاحدود ... في الخير والحب ليس غير .

اليوم الرابع عشر : (بيروت)

تصل باخرتنا بيروت بجوار الباخرة المصرية « سوريا » جولة حرة في أنحاء المدينة حسبما يسمح الوقت ، لقد عنيت حقيقة بسوق الكتب ، في لبنان كتب كثيرة، وصحف وفيرة لانجدها في مصر، مع أن التجاوب الفكري بين البلاد العربية ضرورة لزيادة المعرفة وصقل النفس وتعميق الوعي . أمام العدو خاصة .

وبعد نحو ساعتين كانت في انتظارنا سيارة سياحة لزيارة مغارة جعيتا ... بعض رفاق الرحلة تخلفوا عن موعدها انشغالا بسوق البضائع فلبنان معرض الأصناف العديدة المستوردة من مختلف البلدان .

أما لبنان فمصدر الحرير والفداكه والزيتون .

الساعة تقترب من الواحدة ظهراً كان لابد أن تتحرك السيارة ، تحدثنا المرشدة أن بيروت هى كلمة محرفه عن بيروتا بالآرامية ومعناها شجرة الصنوبر، وهناك شجر الموز وشجر الزيتون «شمال لبنان» .ونصيبها من السكان مليون ونصف تقريباً من عدد سكان لبنان البالغ نحو ثلاثة ملايين ثم تحدثنا عن تقسيمه الإدارى وصلة الفراعنة به إذ كانوا يصلون إلى لبنان للحصول على خشب شجر الأرز لصنع المراكب منه .

وقد استوطن المهاجرون الأرمن لبنان وحملوا هويته وعوملوا معاملة اللبنانيين .ويقوم الشعب بانتخاب ٩٩ نائباً،والنواب ينتخبون رئيس الجمهورية لست سنوات ويشترط أن يكون مسيحياً مارونياً(١)ورئيس الوزراء لابد أن يكون مسلما سنيا ، أما رئيس المجلس فمسلم شيعى .

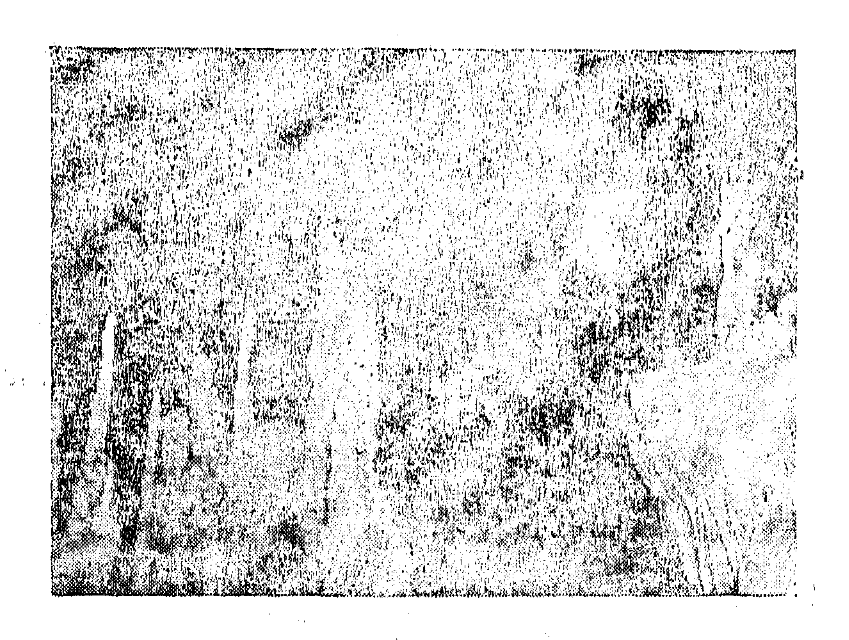
هناك أنابيب بترول من السعودية إلى صيدا ،ومن كركوك إلى طرابلس الشام ...

---

(١) شهد لبنان حربا أهلية فى أبريل ١٩٧٥ سالت فيها دماء . وخربت الديار والمحلات .. على مدى شهور طويلة ،مما حمل بعضهم على المطالبة باستقالة رئيس الجمهورية « سليمان فرنجية » وبرغم انتخاب غيره فقد أرجأ فرنجية استقالته . وعللت بعض الأقلام موقفه بأنه نتيجة لاتفاق مشبوه بتصفية المقاومة الفلسطنيه ، وتقسيم لبنان أو أنه تعبير عن مصالح طائفة تتصور أن بقاءها لايكون الا باذلال شعب لبنان ليزداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا .. مقال عبد المنعم الصاوي .. الجمهورية فى ٢٠ / ٥ / ١٩٧٦ .

لاتزال المرشدة تتحدث أن لبنان استقـل سنة ١٩٤٣م بعد ٢٥ سنة من حكم الترك . وفى الطريق نرى مصانع الألومنيوم والكرتون وغيرها ودير المسيح الملك Christ roi على جبل . نمر بنهر الكلب وسمى بهذا الاسم فيما يحكى إذ كان فيه كلب عظيم إذا وجد عدوا نبح حتى يسمع نباحه فى قبرص ... ومن الملحوظ أن مياه هذا النهر جافة فيما رأيناها تحت جسر قريبا من الجبل .

أما جعيتا فهى كلمة آرامية معناها «جزيرة المياه» تبعد عن بيروت شمالا نحو



مغارة جعيتا «لبنان»

١٨ ك بها آثار مياه من جبل بعيد ، وفى كل سنة تعلو المياه من ذوبان الجليد ، اكتشفت المغارة العليا فوق المغارة المائية من عشر سنوات فقط وافتتحها الرئيس شارل حلو سنة ١٩٦٨ .

ركبنا التلفريك لتصل إلى المغارة العليا ... منظر يرى ولا يسمع أو يقرأ عنه، روعه فى الجمال ، الصخور تكونت من المياه أشكالا تختلف حسب أحاسيس الرائى فهذا شكل معبد وليس معبداً فى الحقيقة، وهذا منظر تستطيع أن تصفه بأنه تمثال أمرأة بينما قد يراه غيرك شيئاً آخر وكذلك وجه أبى الهول، منظر آخر كقطعة سمك بكلاه ، وثان كرأس أسد بأنيابه .

ولتقريب الصورة إلى ذهن القارىء أشير عليه بأن يطوى ورقة نصفين بعد أن يضع فى منتصفها نقطة حبر . . المنظر الناتج قد يراه البعض زرافة أو شجرة، أشكال مختلفة تلقائية أو عفوية كذلك الشأن فى مغارة جعيتا ومن المحتمل بعد سنوات بعيدة قادمة أن تتغير مناظرها بفعل المياه نتيجة ترسب الأملاح الذائبة فى صورة بللورية تتراكم طبقة فوق أخرى وبذلك يتغير الشكل. قدرة الله ، لقد سمعت من يراها وقد أخذ بالمنظر يقول : الله أكبر ، حكمتك يارب .. لابد أن تعرف الله مادمت إنسانا ذا مشاعر .

وعلى كثرة الزائرين فان التنفس فيها طبيعى ومريح ، وممنوع التدخين أبحرت الباخرة فى نحو السادسة مساء وفى أمنية البعض لو استمر أياما فى لبنان.

اليوم الأخير :

ها هى باخرتنا تصل إلى ميناء الاسكندرية قبل وصول الباخرة «سوريا» وإن كانت الأخيرة قد بدأت رحلتها من بيروت قبل باخرتنا «سفنيا» بساعات ومرجع هذا أن « سوريا » اتخذت طريقها فى البحر غير طريق سيدنيا بعيدا عن إسرائيل .

وقد حدث أن خرجت مجموعة من الرحلة بسرعة كأن لم يجر على حقائبهم فحص ، وكل يحمل مع هداياه ذكريات تختلف فى درجة حلاوتها أو عنائها عن الآخر ، أما أنا فقد أخذ زميل الجمارك جواز السفر ليثبت به قيمة الهدايا[1] وكأنه يوقع فى أو توجراف صديق عزيز .. وخرجت شاكراً .

(١) كالعمليات فى ذلك الوقت .

المقالة الرابعة

فى مهبط الوحى

« إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإنى دعوت فى صاعها ومدها بمثلى مادعا به إبراهيم لأهل مكة »

حديث شريف

يوم .. قبل السفر :

عقدنا العزم على أداء العمرة فى رمضان ،المجموعة التى أدتها من قبل معى هى تقريباً ذلك أن الذكرى الطيبة تدفع الإنسان إلى استعادتها ومعايشتها ماوجد إلى ذلك سبيلا وكانا يرجوما قال رسول الله:

« العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

نتجه إلى شركة الطيران للحجز فيخبرنا العامل المختص ألا مقاعد خالية غير غد (١٦من رمضان ١٣٩٢، ٢٣أكتوبر ١٩٧٢) أو يوم الوقفة أى بعد نصف شهر تقريباً فلنختارالغد فخير البر عاجله.

اليوم الأول والثانى :

الظروف ميسرة تماماً ، وقد سمح لنا بتحويل ٨٨جنيهامصريا إلى ١٣٠ دولار ،

نحزم حقائبنا وقد حوت الجديد من الملابس إلى مطار القاهرة حيث قررنا السفر بعد منتصف الليل بقليل «الساعة ١٢ر٢٥ » .

في الطريق : الطائرة تقل أناسا محرمين وآخرين رأوا أن تبدأ زيارتهم إلى المدينة أولا ، وقد كنت من هؤلاء لمجرد التغيير اذ سبق في رحلتي الأولى أن أحرمت للتوجه إلى مكة قبل المدينة ولكي ألزم نفسي معرفة آبار علي أو ذي الحليفة ولم أكن زرتها من قبل كميقات للاحرام .

بينما رأى بعض البدء بالمدينة ربما انتهازا لرخص الفنادق قبل ليلة القدر (٢٧ من رمضان) حيث قيل أن الاسعار ترتفع بهذه المناسبة .

وأيا كان السبب فسيان البدء باحداها قبل الأخرى وإن كان منطق التاريخ أن يبدأ الإسلام بمكة . . غريبا .

وفي الساعة ٠٥ر١ صباحا يعلن المضيف أن الطائرة ستعبر البحر الأحمر بعد نحو عشر دقائق ونستطيع الاحرام حيث الميقات رابغ .

جـدة : ها هي مطار جدة نهبط إليه الساعة ٢٥ر٢ صباحا لقد استكمل بناءه ولم يكن هكذا عامنا قبل الماضي .

صفوف تقف لاتمام الاجراءات ، وأحس أن المحرمين أولى بالتقدمة ، فهم في تجردهم — إذا خلصت النية — أقرب إلى الله من غيرهم .

الوقت قبل الفجر فنتجه إلى مسجد قريب من المطار ، وأنا أحب أن تنشأ دور العبادة قريبة من محطات السكك الحديدية ، والموانئ حيث ترسو البواخر ، والمطارات فهي تعطي المظهر الديني المشرق للبلد . .

ويؤذن المؤذن في صوت قوي أخاذ الأذان الشرعي دون تزيد مثلما نراه في بعض المساجد بمصر ، إذ المفروض أن الصلاة على النبي يقوم بها السامع

بعد انتهاء المؤذن ، لأن تلحق بالأذان (١) ..

وبعد أن نفرغ من الصلاة أدع حقيبتين لى مع بعض الصحب ، وأتجه إلى داخل جدة فى جولة قصيرة .

تبدو الشوارع متسعة وليس هناك مايعوق حركة المرور ، فالمارة قليل وأكثر الحوانيت مغلقة فى الصباح الباكر، فى الطريق طلبة بالمدارس الابتدائية والمتوسطة يلبسون جلبابا أبيض .

زى الطالبـــات : أما الطالبات فيلبسن زيا إلى القدم أزرق أو كحلى اللون وخمارا أسود وجوربا أبيض وحذاء أسود ، ولولا مايحملنه من حقائب الكتب السوداء الموحدة الشكل ما أدركت أنهن طالبات ، وزيادة فى التحفظ كثيرا ما تقلهن السيارات الخاصة أو بالأجرة .

وهذا الزى تتربى عليه الفتاة العربية منذ الصغر اذ لاتعفى منه تلميذة التعليم الابتدائى .

الحقيقة لم أستطع بينى وبين نفسى انتقادا لهذا الوضع، صحيح أن الشريعة الاسلامية رخصت فى ظهور الوجه والكفين ، ولكن هذه حياة القوم ارتاحوا لها ولا بأس من إغلاق أبواب الفتنة .. المهم ظاهرا وباطنا (٢) .

---

(١) تنتهى صيغة الأذان كما رآه فى النوم عبد الله بن زيد الأنصارى وعمر بن الخطاب بقول « لااله الا الله » وزاد بلال فى الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها رسول الله . الطبقات الكبرى ٨٤٧/٢ .

(٢) لعل من الأمثلة الظاهرة على التوفيق بين مدنية العصر فى النصف الثانى من القرن العشرين وتطبيق الشريعة الإسلامية فى السعودية أنه سمح =

الجو شديد الحرارة فكنا نستروح بالمسجد وقد عملت فيه مراوح أعطته ترطيبا مصحوبا فى انتظار عربة إلى المدينة .

الابتلاء وسكينة النفس : هاهى العربة بعـــد الاتفاق على ٢٥ ريالا لم يتنزل عنهـا السائق ولو قليلا للوصول بنـا إلى المدينة ، مفاجـأة أن افتقد إحدى حقيبتى فلا أجدها لقد تركها زميلى خارج المطار وعنده الثقة مثلى ألا شىء يضيع فى هذه البلاد ، فتذكرت تجربة لى مثل تلك فى رحلة إلى ليبيا منذ سنتين ، ففى ميناء بنغازى علمنا أنه ممنوع على الركاب الخروج بدولارات أمريكية فأودعتها حقيبة ملابس ، وخرجت أتجول بالميناء وعدت وقد لحظت أن الحقيبة فتحت عنوة وسرقت الدولارات فأسفت أسفا بالغا وإن حمدت الله أن الباخرة تكفينى المأكل والمشرب والنوم حـتى العودة إلى مصر . ولكـن هذه المرة وقيمة الحقيبة الضائعة وماتحويه أضعاف الدولارات المسروقة إحس بالسكينة تملأ نفسى أحس بقوة الحكمة الالهية فى الابتلاء بنقص الأموال ، وأن الحقيبة لم تضع منى تماما .. صحيح أنها ليست بين يدى الآن وربما إلى أن ينقضى العمر ولكن قيمتها المعنوية تنتظرنى فى اليوم الآخر حتما .. بعض ذنوبى سترتد إلى سارق الحقيبة أو سآخذ بعض حسناته لقاء سيئته معى .. ولعلهـا أخذت بالخطأ ولم يستطع آخذها معرفة عنوانى ليردهـا , ولايملك الإنسان

= للطالبات بالتعليم الجامعى وأنشئت دوائر تلفزيونية مغلقة مزودة بأجهزة تلفونية لكى يلقى الأساتذة محاضراتهم فى الأستوديو لتنقل مباشرة إلى الطالبات وتتم المناقشة والأسئلة عن طريق التلفون وتتعلم الطالبة دون أن يعرف الأستاذ شكلها .

(جريدة الأخبار فى ٢ يولية ١٩٧٤ ، ١١ من جمادى الأولى ١٣٩٤ هـ)

في مثل هذه الحالات الا الدعاء : « رب قنعني بما رزقتني و بارك لي فيما أعطيتني وأخلف علي كل غائبة لي منك بخير » .

تبدأ العربة سيرها الساعة ١٠ر٢ بتوقيتنا في مصر إلى المدينة المنورة يحدثنا السائق أن السعودية تزرع البطيخ والعنب ... والقهوة ، يريد أن يقول : البن ولكنه يحس نشوة المشروب [1] .

نقف قليلا عند « ثـول » محطة للسيارات بها مقهى بلدي ، ثم نقف ببدر .

بـدر : وقد وقعت موقعة بدر في ١٧ من رمضان (السنة الثانية للهجرة) ونحن اليوم في ١٧ من رمضان بعد ألف وثلاثمائة وتسعين عاما ولكنا نحاول أن نتمثل الواقعة وما تزخر به من معان .

أول تلك المعاني الشجاعة وحرية الرأي ، قلة قليلة (٣٠٥ رجال) تغلب كـثرة (نحو ٩٥٠) الأولى زادهـا الحق والإيمـان به ، والثانية في طريق البغي تسير .

ولقد تمثلت ديمقراطية الإسلام حين اختار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مكان المسلمين عند أدنى ماء من بدر فاذا رجل من المسلمين الأنصار هو الحباب بن المنذر يجد شيئا في نفسه من هذا الاختيار فيسأل الرسول : أمنزل أنزلكه الله .. أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فيخبره الرسول أنه

---

(١) يراجع بحث طيب من القهوة في كتاب « من نفحات الحرم » ص ٦٧ وما بعدها للأستاذ علي الطنطاوي دار الفكر بدمشق ١٩٦٠ م

الرأى والحرب والمكيدة فاذا الحباب يشير على الرسول بردم كل قليب [١] وراء ظهره لكيلا ينتفع بها المشركون ما عدا واحدا يشرب منه المسلمون ويبنون عليه حوضا فيجاب إلى طلبه ، وكان الانتصار فى المعركة الذى سبقه انتصار حرية الفكر .

ولقد جرت غزوة بدر بقيادة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المناضل الشجاع بأسلوب لم يكن مألوفا من قبل هو أسلوب الصفوف الذى يدل على النظام لا أسلوب الكر والفر ، وبالاسلوب الجديد تؤدى الصلاة فلا ينسى المقاتل صلته بالله مع عدم الغفلة عن الاسلحة والمتاع .

وحين نرى نتيجة المعركة يسرح الفكر إلى أولها ، فقد مثل الانصار سعد بن معاذ فقال مما قال : « . . فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » . [٢]

وهذه الكلمة النابضة بالصدق وحرارة الايمان المحددة لطاقة القوم فى خوض البحر ، وغدا ، هى عدة النصر تقر بها عين النبى القائد وكان عليه الصلاة والسلام « يتخوف ألا تكون الانصار ترى عليها نصره إلا من دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم » كما يقول ابن هشام . [٣]

وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — سمع فى المجلس حين مشورته للصحابة

---

(١) أى بئر .

(٢) سيرة النبى — لابن هشام ٢ / ٢٥٤

(٣) المرجع السالف ٢ / ٢٥٣

قولا حسنا من أبي بكر وعمر ، والمقداد بن عمرو الذي قال: إمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد [1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

ويلفتنا في هذا الموقف :

١ — حرص النبي أن يكون للمسلمين رأي واحد في المعركة ، مهاجرين وأنصار .

٢ — التوكل على الله لا التهريج الرخيص ومجاملة القائد في غير استعداد نفسي ممن يخوضون المعركة .

ولكم من المعارك يخوضها « الجندي المجهول » ، ولكن بدرا حفظت لشهدائها أسماءهم واحدا واحدا فأول من قتل مهجع مولى عمر بن الخطاب ، ثم رمى حارثة بن سراقة لم ينسب إلى أحد من مشاهير الإسلام كعمر ، وإنما هو أحد بني عدي بن النجار . . فقتل أيضا .

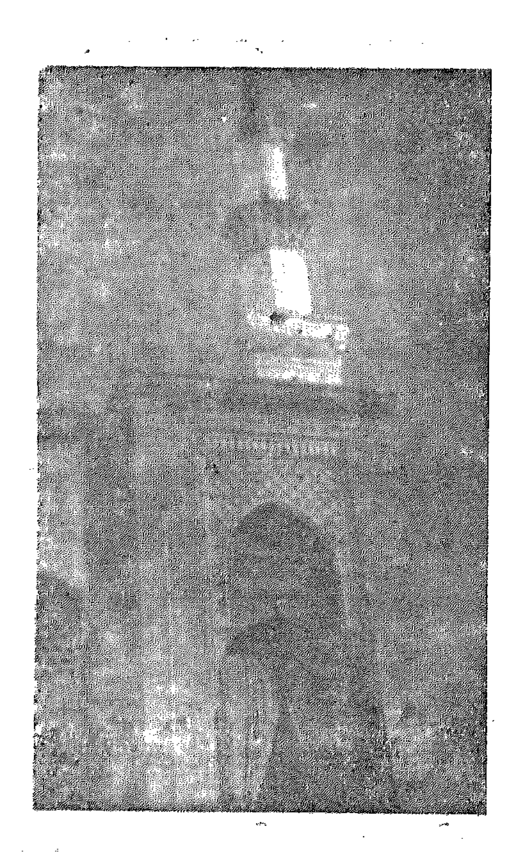
أردنا صلاة المغرب بالمسجد المقام هناك فاذا قريب منه عين بدر وقد أشارت اليها بلدية المدينة المنورة بالعربية والانجليزية بعبارة «ماء للوضوء Water for lavation» وليتها أوجزت شرحا في لافتة أين يبدأ هذا الجزء من العين ، فقد قيل لنا : من واد خلف جبل قريب ، وتنتهي في « الشهداء » .

ثم نتناول طعام الإفطار في مقهى بلدي والجو في شعورنا يشع بأنبل المعاني وأعظمها .

(١) موطن بناحية اليمن .

وتمضى العربة فى سكون الليل فتأخذنا اغفاءة ثم نستيقظ .. الطريق طويل ، إذاعة القاهرة نسمعها والسائق معجب بها وكذلك من معى فأقول ينبغى أن نسمع إذاعة السعودية لنعرف جديدا ولكن أنزل عندرغبتهم .

هاهى المدينة المنورة تلوح من بعيد ، فيخيل إلى أن أول بناء سنلتق به هو الحرم النبوى .. رغبة فحسب ، ونصل المدينة وبعدجهد قصير نوفق إلى فندق من الحرم النبوى قريب .



الحرم النبوى

اليوم الثالث :

نتجه إلى الحرم النبوى لصلاة الفجر ، أول ما لفت نظرى لوحة قرآنية أخذت موضعها عاليا جانب الحجرة النبوية « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ،ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » (١) .

مناجاة الرسول : فإذا أنا أرددها فى نفسى أذوق حلاوتها وأتدبر معناها ،لقد كان الرسول أمام قوم فيهم همجية ينادونه بصوت جهير دون شعور منهم بمراعاة حال النبى ... صلى الله عليه وسلم ... فكيف راضهم الرسول من بعد على الخلق الحميد حتى ليحسب أحدهم وكان رفيع الصوت (٢) أن تكون نزلت فيه « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » فيبكى فيصطحبه أخ إلى النبى فتنزل الآية :

« إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم » (٣) .

ها نحن المسلمين نناجى رسول الله فى خشوع ، نسلم عليه،وعندنا أنه يسمعنا لقد انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١١ هـ وما يزال حيا فى النفوس .. حيا برسالته الخاتمة .

الخليفة الأول:

هاهو أبو بكر الصديق إلى جوار رسول الله كما كان إلى جواره يوم

(١) الحجرات ٤،٥
(٢) هو ثابت بن قيس
(٣) الحجرات ٣ .

الهجرة نبلغه تحية الإسلام ذاكرين جهده في محاربة المرتدين ومانعى الزكاة ، سبحان الله ، أول من أسلم من الرجال يلي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذا المكان أيضاً ورأسه عند منكب الرسول - صلى الله عليه وسلم .

ثانى الخلفاء الراشدين :

ونتقل خطوة حيث يثوى عمر بن الخطاب ورأسه عند منكب أبى بكر نلقى اليه تحية الإسلام وقد قال فيه رسول الله : اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين فكان عمر بن الخطاب ، الذى يذكره التاريخ فيذكر الشهامة والعدل والرأى السديد .

لقد توفى عمر سنة ٢٣ هـ . ولكنه يظل نبراسا لكل قائد يبغى الحكم الصحيح على مدى الأزمان .

ثم نستقبل القبلة داعين الله لنا ولأحبابنا وعامة المسلمين ، وأنا أذكر كلمة « عامة المسلمين » أتذكر الى جوار رسول الله وصاحبيه أنه عن يمين الداخل من باب « جبريل » يجد مكانا مرتفعا قليلا عن الأرض مسورا بسور معدنى ارتفاعه نحو قدم .

أهل الصفة :

إنه مكان « أهل الصفة » فقراء المهاجرين الذين عصبوا البطون وآثروا العبادة الدائمة فى هذا المكان بين بابى « جبريل » و « النساء » من الحرم النبوى الشريف .

هؤلاء عظماء خلدهم التاريخ كجماعة مسلمة نذكرهم بفخار وإعجاب وحب ، وشتى المشاعر الطيبة ثم نخرج من المسجد لنصطدم العين والنفس بمنظر لا ينبغى أن يكون فى مجتمع المسلمين ، نساء - وقليل من الرجال — يتسولن وبنات ينشأن على هذه الخصلة الكريهة .

إعانة الفقراء :

وعندي أن الحكومة قادرة على أن تمنح العائلات الفقيرة إعانات تساعدها على العيش الكريم حفاظا على الإسلام الذى يكافل الحياة الكريمة لرعاياه .

ويزيد الأمر خطورة أن المتسولة لاترى غضاضة فى أن تمديدها ، سألت إحداهن عن جنسيتها — دون أن أعطيها قرشا — فقالت : من المدينة ، وأستطردت : وأنت واقف على أن تكون من مصر ، وهكذا المصريون والمغاربة كيف جاءت بهم طائرة أو باخرة ؟

سؤال مزيج من الاستغراب والاستنكار ألا تجد من يشجع ،وهو فى صميمه يدل على أن التسول كحق العمل لها فى نظرها .

حمام الحرم :

والعمل ضرورى لكى تستقيم للانسان حياته،ولو بيع الغلال لطائر الحرم فى مكة والمدينة على السواء ، وقد كنت أعطى الفتاة البائعة مبلغا من المال — لعله كفارة عن خطأ يسير أقع فيه — لتضع بقيمته طعاما لحمام الحرم فأجدها تكاد تطير من الفرح أو الاشفاق على الحمام لتضع له ماتراه مناسبا لما دفعت فى غير شح منها . ومعروف أن فى حمام مكة اذا قتل شاة على المحرم بالحج أو العمرة .

وهذا يدل على إنسانية الإسلام التى تقوم على التعاطف نحو الكائنات الوادعة . . الحمام ، مما يربى المسلم على الدعوة الى السلام فى معاملاته مع الناس .

ومما يتصل بهذا تحريم الصيد فى الحرم أو قتل الصيد فى حالة الاحرام

إلا ما استثنى فى حديث رسول الله ﷺ « خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » وقد قاس العلماء بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر والفهد فهى أشد فتكا منه .

فالسلام ليس مطلقا حين يتعرض المسلم لأذى .

نور الحرم :

ونعود الى الحرم النبوى عند كل صلاة ، وعند المغرب تجد الحرم يتألق سناؤه : نور خارجى بمصابيح « الفلورسنت » ، ونور داخلى بالإيمان الذى جمع أجناسا متعددة ولغات مختلفة حول النبى العربى يقبسون من رسالة الإسلام الخالدة .

لقد آخى الإسلام بين الأوس والخزرج بعد أن وقعت بينهما — قبل الإسلام — وقائع سفكت فيها الدماء حتى اذا ما هاجر الرسول اليهم أمحت القبلية من نفوسهم .

أخوة المؤمنين :

ليسموا من بعد « الأنصار » ثم آخى الرسول — صلى الله عليه وسلم — بين هؤلاء الأنصار والمهاجرين .

وها أنذا أرى مشهداً لاتفوتنا دلالته : جرت عادة المسلمين قرب أذان المغرب فى رمضان الجلوس بالحرم وقد أعد كل منهم بعض التمر ونوعا من الخبز وربما قليلا من القهوة يتبلغون به عند مدفع الإفطار الى أن تقام الصلاة وقد رأيت من يختلس النظر إلى أخيه فيرى نوع التمر غير الذى يأكل منه

فيعطيه منه ، ونظر الثانى الى فوجد التمر الذى معى غير النوعين فأعطانى من تمره : وثلاثتنا لم يسبق لأحد منا معرفة بالآخرين ، ولكنها روح الأخوة والتواد أنشأها المسجد الإسلامى . . فى غير جشع .

تقول السيدة عائشة « إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً — لطعام .. إن هو إلا التمر والماء ، ولقد مات رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وما شبع من خبز وزيت فى يوم واحد مرتين » .

وتؤكد المعنى نفسه بقولها « ما شبع آل محمد — صلى الله عليه وسلم — منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض » .

صحف المدينة :

وبعد صلاة العشاء والقيام أمضى بعض الوقت فى المكتبة العامة بالمدينة المنورة ولأول مرة أعرف أسماء الصحف التى تصدر بالمدينة: عكاظ ، البلاد ، المدينة .

وينبغى أن تقرأ هذه الصحف فى مصر فلا حدود بين بلاد العالم الاسلامى لاسيما فى مجال الفكر ، وجميل أن تحرر مثلا مجلة «الرابطة الإسلامية» باللغتين العربية والانجليزية على النحو الذى تصدر به مجلة « الأزهر » فهى تسعى الى القارىء الذى لا يعرف العربية ويعرف الانجليزية وهو مسلم يدين بالقرآن كأهل باكستان وأندونيسيا . . فهم يعرفون قراءة القرآن وكتابته ولكنهم لا يعرفون العربية فى غير القرآن ما عدا بعض الكلمات الإسلامية .

وأرى للترابط بين العالم الإسلامى أن تدرس العربية فى البلاد الإسلامية، والأردية فى البلاد العربية ، فمن غير السائغ أن تكون الإنجليزية لغة التفاهم بين المسلمين !.

اليوم الرابع :

نبدأ هذا اليوم بصلاة الفجر فى الحرم النبوى ، فتكرار الصلاة به شىء لايمل بل نزداد رغبة فيه كلما ازددنا ريا من نبع الإسلام الصافى ،حيث لابدع ولاخرافات تنسب إلى الدين ، ففى روضة محمد — صلى الله عليه وسلم — لايمكن أن يدنس ذوق فى غير ما بلغ الرسول عن رب العالمين من دين الفطرة المهذبة ، والفكر العالى .

نشهد أن محمدا رسول الله بلغ الرسالة وأدى الأمانة فاستحق أن يرفع الله ذكره .

التشهد . ولانجد أفضل مما ورد فى « التشهد » فى الدعاء بالصلاة عليه ، ففى التشهد ذكر ابرهيم وآل ابراهيم مما يدل على امتداد الرسالة منذ أبى الأنبياء حتى خاتم الرسل محمد — صلى الله عليه وسلم — وفيه تقدير لمكانة النبوة — فى ذاتها — وفيه احترام للأسرة الإسلامية فى الصميم ، ففى كلمة «آل محمد» و«آل ابراهيم» ما تستريح إليه النفس ، فزوجات الرسول أمهات المؤمنين ، والرسول — صلى الله عليه وسلم — وصفه القرآن بأنه «بالمؤمنين رءوف رحيم»، وأخبرنا — عليه الصلاة والسلام — أنه لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ونفسه .

فأي امتزاج نفسي وعقائدى يجمع بين التابع والمتبوع .

جنة البقيع : ذهبنا إلى البقيع مقبرة شرقي المدينة المنورة فيرشدنا المزور — نظير «المطوف» في الكعبة — هنا العباس بن عبد المطلب ، فاطمة الزهراء ، الحسن ، محمد الباقر ، وهنا بنات الرسول — صلى الله عليه وسلم — زينب ورقية وأم كلثوم ، وهنا أزواج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهنا صحابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عقيل بن أبي طالب ، سفيان بن الحارث ، عبد الله بن الإمام جعفر ، وهنا إمام دار الهجرة مالك بن أنس الذي ما برح المدينة إلى قطر أجنبي . وفدت إليه الناس من كل جنس وأفادت منه علما ، ونافع شيخ القراء مولى عبد الله بن عمر .

وهنا عمة الرسول صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام ، وهنا ابراهيم ابن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهنا شهداء أحد — وننظر جبل أحد يظهر واضحا على البعد — وهنا عثمان بن عفان ، وهنا حليمة السعدية .

ثم يذكر أن خارج سور البقيع أبا سعيد الخدري وفاطمة ابنة أسد والدة أمير المؤمنين علي . ونحن نسلم عليهم .

ونشعر في كل مرة أنه يشير إلى أب أو أخ أو أم أو أخت وراء التراب بالأمس القريب ومحامده ملء القلب والفكر واللسان .

وعند الخروج يظهر جبل سلع على الأفق متقاربا مع مئذنة الحرم والقبة الخضراء .

ولا يزال بقيع الغرقد (١) أو جنة البقيع كما يسميه بعض ، فقد دفن

---

(١) سمي بذلك لأنه كان فيه غرقد — شجر الشوك — وقطع .. النهاية ٣/٣٦٢

فيه نحو عشرة آلاف صحابي ، يحتوي من أجساد المسلمين كل يوم ماشاء الله ، فالأرض فيه لذلك مقسمة أقساما ثلاثة أو أربعة يوارى فيها بالتعاقب .

ونستقل سيارة إلى المزارات بالمدينة المنورة :

(١) مسجد قباء : وينطقونها بحذف الهمزة ، وهو بقرية في الجنوب الغربي



مسجد قباء

على بعد ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة ، أقام بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في بني عمرو بن عوف أربعة أيام أو تزيد وبها أنشيء المسجد الذي قال فيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم « من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فيصلي فيه صلاة كان له كأجر عمرة » ويروى أن عمر بن

الخطاب كان يأتيه يومى الاثنين والخميس ويقول :لو كان مسجد قباء فى أفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الابل .

والحق أن هذا الموطن يصل فكرك وقلبك بالحرم النبوى والمنطقة حواليه كما يصلنا بماضى الدعوة الاسلامية الاولى . . إلى الأنصار وكأنها وقعت فى يومنا الحاضر .

فقد أدركت رسول الله الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها بالمسجد الذى فى بطن وادى رانوناء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة ، وهنا يتسابق الناس بين مسافة وأخرى من الطريق فى استضافة رسول الله — ﷺ — قائلين له : هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة فيقول لهم وهو راكب ناقته « خلوا سبيلها فانها مأمورة » فيخلون سبيلها وتنطلق حتى إذا أتت بنى مالك بن النجار بركت فى مربد [1] . فسأل الرسول : لمن هو ؟ فقال معاذ بن عفراء : لغلامين يتيمين لى ، هما سهل وسهيل بنى عمرو ، وسأرضيهما منه ، فأمر به رسول الله أن يبنى مسجداً [2] ونزل الرسول — ﷺ — على أبى أيوب خالد ابن زيد ، ولم يشأ رسول الله — ﷺ — أن يكون فى العلو من البيت كما عرض عليه أبو أيوب ، وإنما أقام بالسفل قائلا : يا أبا أيوب أن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

ولقد كان الرسول يعمل فى بناء المسجد مع المهاجرين والأنصار وهم يقولون :

---

(١) الموضع الذى يجفف فيه التمر .

(٢) لم يفت صاحب «الطبقات الكبرى» الإشارة إلى أن رسول — ﷺ — ابتاعه منهما بعشرة دنانير مع قولهما له : بل نهبه لك يارسول الله :ج٢/ص٢.

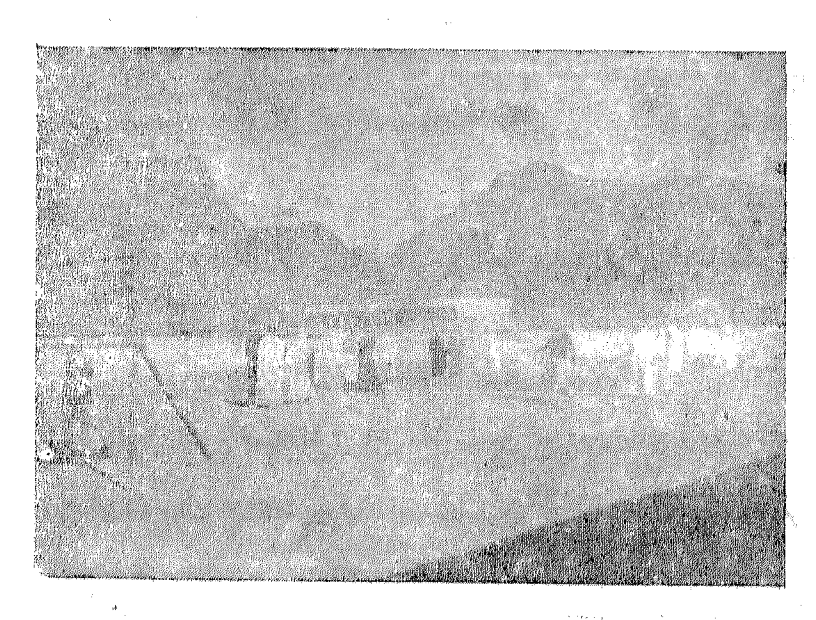
لا عيش إلا عيش الآخرة   اللهم أرحم الأنصار والمهاجرة

مما يدل على تطلعهم إلى اليوم الآخر وإيمانهم به ، وكذلك كان يعمل على ابن أبى طالب.

كنا نسير فى هذه المنطقة حوالى المسجد ويخطر لنا أن رسول الله مشى فى هذه الطريق أو تلك فنحس النشوة والسرور ... والأدب أيضاً .

ثم تنطلق العربة إلى :

(٢) جبل أحد : هنا شمال المدينة   وقعت معركة انتصر فيها المسلمون فيما أرى وإلا لما قال الرسول : هذا جبل يحبنا ونحبه . وإن كنا نحس ضراوتها وشدة الرغبة فى الانتقام فى قول أبى سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى .



جبل أحد

وقد أصيب فيها النبي القائد فكسرت رباعيته وجرح وجهه وكسرت البيضة على رأسه وهاهو يقول - ﷺ - «أشتد غضب الله على من قتله النبي ﷺ - في سبيل الله ، أشتد غضب الله على قوم دموا وجه نبي الله - ﷺ - ».

فقد اشترك الرسول مخططاً للمعركة ، فكان من خطته - ﷺ - أن يثبت الرماة «إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » ذلك أن المشركين كان لهم مائتا فرس يقاتلون عليها فاذا أخذ الرماة يرشقونها بالنبال فهيهات أن تتقدم، وهكذا فعل المسلمون في بدر، ولكنهم في هذه المعركة - كما يقول البراء - هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون . الغنيمة ، الغنيمة ... وهنا يغتنم فرسان المشركين الفرصة ليتقدموا...

وكان من أسلحة المشركين الشائعة يروجونها لعلها تصيب أثرها في إيهان القوى المعنوية ، وكان من أخطر ما يقال أن يتردد عن النبي أنه قتل ، فقد بلغ حب المسلمين لرسول الله - ﷺ - أنهم لا يتصورون موته ولقد سجل القرآن ذلك « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم (١)».

وبالفعل أشاع قميئة الليثي قاتل مصعب بن عمير بين يدي رسول الله أنه قتل محمدا ، ولك أن تتصور كيف يغلب الحزن القوم فيرجع بعضهم في طريق

---

(١) آل عمران ١٤٤ .

المدينة ، بينما تنتاب الحيرة بعضهم فتصيب سهام المسلمين المسلمين، بينما ثبت مع النبي البعض الآخر... ويظهر صوت النفاق « لو كان نبيا ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول » ...

وأيا كان الأمر فقد كانت «أحد» محكا صادقا لنفوس القوم ونضرب مثلا واحدا عمرو بن الجموح كان أعرج وليس على الأعرج حرج ولكنه يقول «أرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة » ، فأي إخلاص هذا يدفعه إلى الاستشهاد في سبيل الله هو وابنه خلاد ... وغيرهما كان يريد أن يرزقه الله الشهادة .

وقد ظهر النبي قائداً إنسانا يسأل عن جنوده ولا ييئس من نصر الله ، فقد سأل مثلا عن سعد بن الربيع ، وذكوان بن عبد قيس، وكان يدعو لقتلى أحد بالجنة ويقول :

«أنا شهيد على هؤلاء وما من جرح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون الدم والريح ريح المسك »

«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون».

من أجل هذا قدمنا أن المسلمين — برغم دروس المعركة القاسية أحيانا.. انتصروا وليس أدل على ذلك من أن فرسان قريش لم يدخلوا المدينة ووقفوا بالعقيق — موضع بالمدينة — وهموا بدخولها ولكن موقعة بدر كانت في واعيتهم حائلا دون التقدم ويقول قائلهم .

«ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا جراح ، وخيلنا عامتها قد عقرت من النبل» .

وقد انتهت المعركة فى ٧ من شوال سنة ٣ هـ (٢٣ مارس ٦٢٥ م) وحمل الناس قتلاهم إلى المدينة فقال منادى رسول الله ﷺ «ردوا القتلى إلى مضاجعهم» ولكنهم كانوا قد دفنوا فتركوا إلا واحدا رد.

قبر حمزه وصاحبيه :

هانحن نرى قريبا من جبل الرماة قبر حمزة بن عبد المطلب وعبدالله بن جحش ومصعب بن عمير .

لقد دفن ثلاثتهم فى قبور متجاورة أو لعلها قبر واحد ، وقد قال الرسول لأهل القتلى :

أحفروا وأوسعوا وأحسنوا وأدفنوا الاثنين والثلاثة فى القبر وقدموا أكثرهم قرآنا .

وعن هؤلاء الثلاثة يروى أن الرسول ﷺ حين توجه إلى المدينة لقيته حمنة بنت جحش بنت عمه ﷺ فقال لها :

احتسبى .

— من يارسول الله ؟

— خالك حمزة .

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئا له الشهادة .

— ثم قال لها :

— احتسبى

— من يارسول الله ؟

— أخاك عبد الله بن جحش .

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئا له الشهادة .

ثم قال لها :

— أحتسبي .

— من يارسول الله ؟

— زوجك مصعب بن عمير .

— فصاحت : واحزناه، واحر قلباه .

فقال لها رسول الله — ﷺ — :

— لم قلت هذا ؟

— تذكرت يتم بنيه فراعني .

ولعل الحزن قد فاض بها بعد الاثنين فولولت عند ذكر زوجها ، على أن الرسول — ﷺ — دعالها ولولدها أن يحسن الله عليهم الخلف ، فتزوجت طلحة بن عبد الله فكان أوصل الناس لولدها .

وبرغم أن المنطقة لاتحوى من القبور غير هؤلاء الثلاثة فان النساء ممنوع دخولهن ويقفن من وراء سور ، وهناك لافتة بلغات ثلاث :

«الصلاة عند القبور والتمسح بها ورمى النقود عليها لاتجيزه الشريعة الاسلامية» .

ثم تمضى العربة إلى :

(٣) بئر عثمان : وقد نضب ماؤها وهى داخل مزرعة لوزارة الزراعة السعودية .

(٤) مسجد القبلتين : وهو كما يدل عليه اسمه المسجد الذى كان يصلى فيه رسول الله نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة ، ونزلت الآية الكريمة « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون (١) .

فتحول الرسول — ﷺ — فى صلاته من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، وفى هـــذا تكريم للبيت الذى رفع القواعد منه أبو الأنبياء إبراهيم — عليهم السلام — وتشريف لمكة .

(٥) مسجد الخندق أو الفتح : ويقع على الخندق ، ولعله سمى بالفتح والمساجد التى جهة قبلته تيمنا بسورة الفتح ... ونعود إلى المدينة حيث نرى فى طريقنا :

(٦) مسجد الغمامة : وهو فى ميدان قريب من الحرم إلى حد ما .

وننتقل إلى الحرم النبوى الشريف، الوقت الظهيرة قد تجد من ينام فى الحرم وتستغرب لذلك ولكن الأمر فى أعماقه نعمة من الله بالنسبة للمسافر إلى المدينة وتثقل عليه أجرة الفنادق أو تشق عليه حرارة الشمس فى رابعة النهار، وقد كان ابن عمر ينام فى مسجد الرسول — ﷺ — وهو عزب .

ونزور المصطفى عليه الصلاة والسلام وندعو ما طاب لنا الدعاء ونخرج لنعد حقائبنا قاصدين آبار على بعربة « شفروليه » حيث وصلنا إليها بعد عشر دقائق .

آبار على : أين هى آبار على ؟ ذكر لنا أحد المقيمين بالمنطقة أنها بعيدة قليلا ولا فائدة

---

(١) البقرة ١٤٤ .

من زيارتها لنضوبها وتوجد آبار صغيرة يمتح منها الســـاء ويؤكد هذا القيم أنها تفلت حصى الكلى .. ولكن الوقت صيام ولا سبيل إلى مذاقها فنكتفى بالاحرام وصلاة ركعتين .

ونذكر أن ابن تيمية يتحدث عن هـذه المنطقة قائلا « وفيها بئر يسميها جهال العامة بئر على ، لظنهم أن عليا قاتل الجن بها ، وهو كذب فان الجن لم يقاتلهم أحد من الصحابة .. ولا فضيلة لهذا البئر ولا مذمة » .

سارت العربة على بركة الله .. الطريق طويلة تحفها الجبال فى كثير من المناطق ، والظلام يكاد يلفها تماما الا ما نرى من مصابيح اشارة السيارات العابرة ، لو لم توجد هذه المصابيح المضيئة أكانت تسير العربات فى غير اصطدام بعضها ببعض ، وتهشيمها جميعا برغم مهارة القيادة ؟ .

يخطر هذا السؤال لنا فنتذكر أن الإيمان كذلك فى ضرورته للانسان .

بكـة . ها هى مكة التى كرمها الله حين ذكرها فى القرآن بهذا الاسم ، « وبكة » مرة و « أم القرى » أخرى فاشتهرت هـذه الأسمـاء القرآنية دون غيرها مثل الناسة (١) ، والباسة والحاطمة ، تقع على خط عرض ٥ر٢١ ° شمالا متقاطعة مع خط الطول ٥ر٣٩ ° شرقـا .

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين (٢) »

(١) فى أساس البلاغة : قيل لمكة الناسة لجدبها ويبسها .

(٢) آل عمران ٩٦

نعم، للعالمين يحجون إليه ويطوفون حوله من مصر وباكستان، وبورما، ونيجيريا، وروسيا... وغيرها يزورون هذا البيت ويبلغ بهم التأثر حد البكاء الطويل في مناجاة لله أن يرفع عنهم إصرهم ويفرج كربهم ويجعل الوارث منهم.

«وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها(١)»

ويقرأ زميل من كتاب (٢) دعاء يذكر عند دخول مكة المكرمة:

«اللهم إن هذا الحرم حرمك والبلد بلدك، والأمن أمنك والعبد عبدك جئتك بذنوب كثيرة وأعمال سيئة، أسألك مسألة المضطرين إليك المشفقين من عذابك أن تستقبلني بمحض عفوك وأن تدخلني في فسيح جنتك»...

ويردد الرفقة الدعاء، وتستوقفني كلمة «ذنوب كثيرة وأعمال سيئة» أبدا لا أحس أني ارتكبت ذنوبا كثيرة جئت لأغتفر هنا وإن كان قد يغلب على الناس ذلك، لقد جئت ألتمس الخير فوق الخير في نفسي، وربما حابيت النفس دون أن أدرى، فالشعور بالذنب مسألة نسبية تخضع للفرد وطباعه وللأمة وتقاليدها.

ونستكمل الدعاء «اللهم إن هذا الحرم حرمك وحرم رسولك فحرم لحمي وعظمي على النار، اللهم أمني من عذابك يوم تبعث عبادك، أسألك بأنك

(١) الشورى ٧

(٢) مناسك الحج والعمرة. عبد الرحمن محمد أمين وصلاح الدين عطية ط ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢م القاهرة.

الله الذى لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد ﷺ وصحبه ، وسلم تسليما كبيرا أبدا ».

فيقع الدعاء فى النفس موقعا طيبا «حرم لحمى وعظمى على النار» لاسيما عند رؤية البيت الحرام فعلا .

تقف السيارة لنبحث عن مكان نبيت فيه ، لا شىء حاضرا يليق بمكانتنا الاجتماعية أو يعادل فندق السعادة الذى أقمنا به فى المدينة المنورة منذ أيام . وتضطر الى المبيت فى بيت لأحد الناس أسمى نفسه « خادم بيت الله الحرام » — تسمية فخر للملوك فى هذه البلاد (١) — وأراد أن يؤجره لنا بدون «حنبل» . فأسأل عن معنى « حنبل » فيخبرنى زميلى المصرى : يقصد السجاد لننام فوقه إذ لا توجد أسرة . . لا بأس على أبناء الأرض أن يناموا على الأرض ، وفى المسجد الحرام متسع للأنام يقضون فيه يومهم وغالب ليلهم ، الناس هنا لا يعرفون بمكانتهم الاجتماعية فى غير هذا البلد . . المكانة الدينية ينظرها الله ولا شىء غيرها . . وفى صحيح مسلم أنه — ﷺ — ظل يتكىء على وسادة من أدم حشوها ليف ، وقبض فى ثوبين متواضعين : إزار غليظ مما يصنع باليمن وكساء ملبد .

ولقد رأى بعض فى الآية الكريمة :

« وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

---

(١) من المآثر التى ذكرت للمغفور له الفيصل بن عبد العزيز أنه رفض أن يطلق عليه «جلالة الملك» . فالجلالة لله وحده .

أن العاكفين يقصد بهم من انتابه - أي الحرم - من الأمصار فأقام عنده»
وعن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينامون في المسجد فقال : هم العاكفون (١) .

نعم ، إنهم ضيوف الله في بيته الكريم « طهرا بيتي » .

تركنا متاعنا لنقوم بزيارة المسجد الحرام ، وعند الدخول من باب السلام نتلو :

« اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام ، وأدخلنا الجنة دارك دار السلام . . »

« السلام » تتكرر حتى تشبع بها النفس في بلد السلام والأمن كما دعا الله لها ابراهيم عليه السلام ، وليس أكثر من الجنود في مكة لايحملون سلاحا.
هكذا رأيت ، فاذا ما رأيت البيت الشريف لاتملك إلا أن تقول : الله أكبر : الله أكبر ، الله أكبر ، وتهلل ثلاثا أيضاً فكلمة « لا اله إلا الله » تتضح في النفس كأعمق ما تكون في هذا المكان العظيم .

« اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريماً ومهابة وبراً ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفا وتعظيما ».

الكعبة المشرفة : لقد تذكرت أن الكعبة على مر التاريخ وجدت من يحاربها وتصدت له ولعل أول هجوم عليها حملة أبرهة الحبشي التي وجهها من اليمن

(١) نيل المرام - محمد صديق خان ص ٣٢ - ط التجارية سنة ١٩٦٣م

نحو سنة ٥٧٠ م وقد أراد أن يحول دون التفاف الناس حولها وبنى كنيسة بديلا عنها ولكنه حين قدم ليهدمها وأصحابه أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، وتأمل هذا الجمع الذى لا يعرف مفرده يقينا (١) ربما ليعبر عن فظاعة هذا الكم بما لا نستطيع أن نتصور أفراده حتى ليتساقط أصحاب الفيل كأوراق الشجر يأكلها الدود

هذا فى الجاهلية .. وفى العصر الأموى أرسل يزيد بن معاوية رجلا يدعى الحصين بن نمير على رأس جيش لمحاربة عبد الله بن الزبير فى مكة وسار الجيش وضيق الحصار على عبد الله وصحبه فأضطروا إلى اللجوء إلى الكعبة وبنوا حولها خصاصا من القصب ولكن الحصين لم يكف عن أمر رجاله بضرب الكعبة بالمنجنيق حتى تمزقت كسوتها وبدت أحجارها (٢) ...

تذكرت هذا المشهد وما فعلته الصهيونية فى بيت المقدس فدعوت الله أن يجعل هذا البلد آمنا .. حين يظل الناس فى أمنهم النفسى دون تناحر على عرض الدنيا أو تحاسد وتباغض .

ومن يقرأ الآية الكريمة « واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » (٣) .

---

(١) قيل : أبالة ، وأبول ، وأبيل ، وأبال ..

(٢) فى منزل الوحى ص ٢١١

(٣) البقرة ١٩١

يدرك كم عزيز على العناية الإلهية أن يحدث قتال عند المسجد الحرام إلا أن يضطر المسلمون فى هذا الموضع دفاعا عن النفس، والدين كما يقول الله:

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . (١)

الطواف حول الكعبة : نقترب من البيت الكريم ثم نبدأ الطواف ، وباب البيت عن يسار مبتدئين بالحجر الأسود ، سبعة أشواط الثلاثة الأولى رملا أى فوق المشى ودون الجرى مع هز الكتفين .. حركة رياضية تدل مع الاضطباع — على الفتوة والنشاط ، ولا رمل على النساء .

الحجر الأسود : وهنا نجد الناس متزاحمين فى شوق كل يريد أن يقبل الحجر الأسود ولا نرى التزاحم ضروريا إذ يمكن الاستعاضة عن التقبيل باستلامه باليد أو مشيراً عليه بيمينك من بعد .

وغالب الظن أنه ليس من حجارة الأرض فقد يكون من السماء من طريق النيازك ، فهو عزيز على القوم حتى أن قريشا تبنى الكعبة بعد أن كان هدمها السيل ثم يتنازع زعماؤها أيهم يضع الحجر حتى يحكموا أول من يطلع عليهم . . فكان النبى عليه الصلاة والسلام ، هنا لا يشيح محمد بوجهه مسفها أن يتنازعوا على وضع حجر وإنما يبسط رداءه ويضع فى وسط الحجر ثم

(١) البقرة ٢١٧

يقول لأربعة من أهل الرياسة فيهم : ليأخذ كل واحد بجنب من جنبات هذا الرداء ، فشالوه وأدنوه من موضعه فأخذه — عليه الصلاة والسلام — ووضعه في مكانه وقريش كلها حضور [1] .

وتمضى نحو خمس سنين [2] على بناء الكعبة ليبعث محمد نبيا ، فكأنما كان اختيار قريش بأشرافها وشيوخها لمحمد أن يضع الحجر الأسود إقرارا منهم أنهم محتاجون إلى محمد — عليه الصلاة والسلام — في الأمر كله من بعد.

والحجر الأسود هو الذى قال فيه عمر إنى لأعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك . . وهو — ولله المثل الأعلى — يمين الله في أرضه يصافحها أو يقبلها المسلم معاهدا الله على دوام العمل بسنن الإسلام ، وليس هذا بمستغرب والبيت بيت الله ووضعه في الركن إلى الباب قد يناسب هذا الفهم .

ومن الملحوظ أن المطوفين يلقنون الحجيج أو المعتمرين أدعيه معينة يختلف كل منها في شوط عن الآخر أما عند الطواف بين الركن اليمانى والحجر الأسود فيتكرر الدعاء القرآنى :

«ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخره حسنة وقنا عذاب النار [3]»

وعندنا أن للمسلم أن يدعو بما يعبر عن حاجته وسؤله صادقا مخلصا لله بأى دعاء يشاء .

---

(١) مروج الذهب ص ٤٩١

(٢) مروج الذهب ص٤٩١

(٣) البقرة ٢٠١

مقام ابراهيم : ثم نتجه إلى مقام ابراهيم حسب الأمر القرآني :

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى[1]» .

ونصلي ركعتين سنة الطواف ويستحب أن يقرأ فيها «قل يأيها الكافرون» و«قل هو الله أحد».

ومن المفسرين من يرى أنه يقصد بمقام ابراهيم الحرم كله[2]، ونستريح إلى أن المقصود به على التخصيص الحجر الذي قام عليه أبو الانبياء وهو يرفع القواعد من بيت الله الحرام ويناوله اسماعيل الحجارة ، ويدعو المسلم دعاء ابراهيم واسماعيل :

«ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم »[3] .

والمقام حاليا أمام الكعبة بجنة الملتزم حين تقف مستقبلا القبلة محاط بسور معدني على قاعدة من رخام ، وقد قيل إنه كان ملصقا بجدار الكعبة وأخره عن الجدار عمر بن الخطاب ، وليس في صنيع عمر مايثير شكا وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » ويقصد بها المسلمون صادقو الإسلام بفهم ووعي ، ومن مثل عمر مسلما بين قادة التاريخ؟

---

(١) البقرة ١٢٥

(٢) تفسير ابن كثير ١٦٨/١

(٣) البقرة ١٢٨ .

وقد كانت بعض آيات القرآن تنزل موافقة لما يرى ومنها ـ فى هذا الصدد ـ ما رآه عمر من الصلاة خلف مقام ابراهيم إذ قال :

يارسول الله ، لوصلينا خلف المقام ! فأنزل الله ـ سبحانه ـ « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » ودلالة هذا الأمر أن محمدا ـ ﷺ ـ يقوم مقام خليل الله رسولا نبيا وأن الدعوة متصلة .

ثم يستحب أن نعود إلى الحجر الأسود ـ الرمز القديم ـ نستلمه .

ومن المشاهد العميقة وقوف المسلمين بالملتزم ـ ما بين الركن والباب ـ وقد إنهمرت دموعهم ، ومنهم من يقف ساعة أو تزيد رافعـــاً يديه على حائط الكعبة بين بابها والحجر الأسود ملتصقا بأستار الكعبة ، وقد كنت أسمع لغات غريبة عنى ممن يجاورونى بالمكان ومع ذلك فالمعنى واضح ... صلة عميقة بالله ، وذنوب قد أذابتها الدموع فيصبح الإنسان طاهراً كيوم ولدته أمه .

ومن التجمعات اللافتة فى حجر اسماعيل وهـــو ما حواه الجدار المدار بالبيت جانب الشمال يصلون ويدعون فتحس مع الحركة الاهتمام البالغ بالوصول إلى الله . تجمع لا للمصالح الشخصية الدنيوية ، وإنما هو تجمع هادىء لهدف عال يصل بهم إلى اليوم الآخر يبغون به الجنة إن شاء الله .

الصفا والمروة:

ثم خرجنا للسعى بين الصفا والمروة ، أما المسنون أو غير القادرين فثمة عربات لهم نظير ريالات قليلة ، وينبغى أن يتسامح العمال المختصون بهذه العربات فى الثمن الذى يتقاضونه من الحجيج أو المعتمرين إذا لم يستطيعوا

دفع ما يقررون من أجر مساعدة لهم فى أداء شعيرة من شعائر الله كما قال الله : «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم»[١] .

ولم يرد ذكر الصفا والمروة فى القرآن فى غير هذه الآية ولكنها تبلغ من نفس المؤمن مبلغا عميقا وهو يرددها فى سبعة الأشواط كلما اقترب من الصفا أو المروة حتى يبلغها ويرتفع فوقها .

وواضح من الآية أنها نزلت فى قوم تحرجوا من الطواف بالصفاوالمروة بعد إسلامهم إذ كانوا يطوفون بها فى الجاهلية ، ولكن فرق بين من يطوف وهو غائب الوعى عن الهدف من طوافه أو يظن أن الصفا والمروة معبودين من دون الله ، وبين من يدرك الحكمة الإسلامية من واقع التاريخ ...

فالأصل فى الطواف قصة أم اسماعيل – عليه السلام – حين عطش ابنها عطشاً شديداً فصعدت إلى الصفا [٢]–وهى من أصل جبل قبيس–فنظرت فلم تر شيئا حتى أتت المروة [٣] فلم تر شيئا فعادت إلى الصفا ثم إلى المروة سبع مرار فقالت يا إسماعيل مت حيث لا آراك فأتته وهو يفحص برجله من من العطش فناداها جبريل : من أنت ؟ قالت : وكلنا إلى الله ، قال : وكلكما

---

(١) البقرة ١٥٨

(٢) الصفا : جمع صفاة وهى الصخرة والحجر الأملس .

(٣) المروة : حجر أبيض براق...من أجل هذا بدا لماجر من بعيد كسراب فيا ترى .

إلى كاف وفحص الأرض بأصبعه فنبعت زمزم فجعلت تحبس الماء (١) ،وفى ذلك يقول - ﷺ « لو تركته لكان الماء ظاهراً » (٢)

دلالات المشعى:

وهذا الحديث يدل على أن الحكاية ليست أسطورة كما قد يتبادر إلى ذهن، تقول الدكتورة بنت الشاطىء « إن جهاد أم فى سبيل ولدها قد تقبلته السماء ورأت فيه أسمى صورة من صور العبادة فجعلت من تلك القصة الإنسانية المؤثرة للأمومة سفراً يتلى فى « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء ابراهيم آية منزلة فى « القرآن الكريم » ..

١ — الأمومة:

وتستطرد قائلة « .. وما كانت « هاجر » سوى أمه طريدة مضطهدة نبذت مع وليدها بالعراء فى الفلاة الموحشة بواد غير ذى زرع لكنها أم ، وكانت الأمومة حسبها عبادة وقربانا » (٣)

٢ — العمل الدائب :

وفوق هذا المعنى الإنسانى الكبير نجد معنى تقـــدير العمل حين يلوح الأمل ، وقد حرك هذا المعنى فى النفوس رسول الله - ﷺ - وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى يدور به إزاره وهو يقول : اسعوا فان الله كتب عليكم السعى .

(١) تفسير ابن كثير ١٧٨/١ (٢) تفسير ابن كثير ١٧٧/١

(٣) أرض المعجزات ص ٩٣ وما بعدها - دار المعارف بمصر ، (أقرأ) سبتمبر سنة ١٩٥٦ .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - كان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثا ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

يصنع ذلك ثلاث مرات ويصنع على المروة مثله (١) .

فهو عليه الصلاة والسلام قد بدأ بالصفا كما بدأت الآية الكريمة .

٣ - الامتثال : وحسب المؤمن أن يمتثل أمر الله ولو خفيت المعانى وراءه، ومن الخطأ الظن أنه ليس على الرجل شيء أن لا يطوف بهما كما فى حديث عروة - وهو حديث السنن - لعائشة - رضى الله عنها - فقالت عائشة : كلا، لو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما .

فقد أصبح الطواف بهما بالتعبير القرآنى من شعائر الله أى علما لطاعته « جل وعلا » فهو إذن ركن لا يصح الحج أو العمرة إلا به .

يقول مالك : لا أرى على الذى يرمى الجمار أو يسعى بين الصفا والمروة وهو غير متوضئ عادة ولكن لا يتعمد ذلك (٢) .

ولقد أوضح بدء الهرولة بالنسبة للرجال دون النساء ضوء أخضر بعد الصفا بنحو ٧٥ مترا وتنتهى بعد نحو سبعين مترا وهذه المسافة يظهرها ضوء آخر أخضر وفى أثناء الطواف سيرا ، أو هرولة كنت أرى الطريق مسقفيا

(١) الموطأ ص ٢٤٣

(٢) الموطأ ص ٢٦٣

« إحساس لا أجده في غيره من الطريق » فأدعو الله أن يهديني الصراط المستقيم ، وأن يكلل مسعانا بالخير .

وينتهي الشوط السابع عند المروة حيث تجد بعض الصبية يحمل كل مقصا لتقصير الشعر فيتحلل المحرم من الاحرام وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ اللهم ارحم المحلقين ، قالوا : والمقصرين يارسول الله ، قال: اللهم ارحم المحلقين ، قالوا : والمقصرين يارسول الله ، قال : والمقصرين .

اليوم الخامس : نمضيه في الأسواق ، ولكن كلما أذن المؤذن لصلاة أسرعنا إلى المسجد الحرام . وربما توجهنا إلى المسجد قبل الصلاة للطواف بالبيت فإذا ما أقيمت الصلاة أثناء طوافنا أدينا الصلاة ثم نعود لتكملة الطواف .

وأتأمل الطائفين كل في شغل عن الآخر إلا من سؤال سريع من أحدهم لآخر عن شيء يريد أن يعرفه أثناء الطواف ..

الإحرام والحياة . لقد تجردوا جميعا من أسباب الدنيا إلا ما يستر العورة من ثوب غير مخيط يمثل الكفن عند أناس ، ومن المعتاد أن تجد من يغسل ملابس الإحرام بماء زمزم موصيا أن يكفن بها عند مماته ويجد في ذلك راحة للنفس .

شروط حياة حافلة بتجارب وأنواع من الصراع بين تجرد الانسان عند الميلاد وتجرده عند الموت قد عبر بالإنسان في ملابس الاحرام ، أما فكرة الموت عندي فلم تخامرني إلا حين كنت أتذكر والدي ـ رحمه الله ـ طائفا بالبيت عامنا الماضي أو حين يصلي على الميت الحاضر بالمسجد الحرام .. الآف يصلون عليه وهم مطهرون ، وغالب الاعتقاد أنه مات مطهرا أيضاً ، فأعظم

الناس ذنوبا من وقف حاجا أو معتمرا وهو يحس أن الله لم يغفر له ، وقد قال رسول الله « ﷺ » « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه (١) » ويقول عليه الصلاة والسلام: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن (٢)، وعنه ﷺ أنه قال قال الله عز وجل . أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإذا أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهرول (٣) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : بينما رجل واقف مع النبى « ﷺ » بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته فقال النبى : اغسلوه بماء وسدر وكفنوه فى ثوبين ولا تمسوه طيبا ولا تخمروا رأسه ولا تحنطوه فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيا (٤) .

الله أكبر .. أى سعادة يغبطه الأحياء لها ؟ !

لقد كانت عمقتنا حياة فى هدوء واستقرار نفس وملابس الإحرام فى نظرى مثل لبساطة الحياة وما ينبغى أن يكون عليه المسلم من شعور التساوى مع المسلمين غيره لا علو ولا فساد فى الأرض .

---

(١) صحيح مسلم ٤/١٠٧

(٢) «مسلم ٨/١٦٥

(٣) «مسلم ٨, ٩١

(٤) مسلم ٤/٢٣ ، البخارى ٣/٢٢ — وقصته : دقت عنقه فمات .

إن العمرة حجة مصغرة ـ إن صح التعبير ـ [١] وقد قال الله فى الحج :
(وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات [٢] على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) [٣]

ففى هذه الآيات من أمارات الحياة الدافقة أنهم يشهدون (منافع لهم) ، هذه المنافع تختلف باختلاف الأفراد ، قد تكون فى المعرفة لأحوال الناس فى هذه البلاد ، قد تكون التجارة . . . أو قد تكون أى شىء ولكن لابد أن يعطف على هذه المنفعة المعنوية أو المادية ذكر الله ، وشكر الله (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) ثم تقول الاية : (فكلوا منها) مظهر حياة (وأطعموا البائس الفقير) تعاطف وتراحم (ثم ليقضوا تفثهم) أى يزيلوا أدرانهم من قص الأظفار والشارب وحلق الرأس . . . . . (وليوفوا نذورهم) يؤدوا ما نذروا من عمل البر (وليطوفوا بالبيت العتيق) أى الكعبة بما فى هذا الطواف من معنى السعى والفتوة .

فليس فى هذه الآيات ما يشير الى الموت ، ومع ذلك فإن الاحرام للحج والعمرة يوحي إلى نفوس بفكرة الموت لأول وهلة بالنظر إلى ملابس

---

(١) كانوا يسمون العمرة الحج الأصغر ، ويوم الحج الأكبر هو يوم عرفة أو يوم النحر . . النهاية ٤ / ١٤١ .

(٢) وقت أداء الحج أشهر معلومات هى شوال ، وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، ولا يجوز الإحرام بالحج قبلها .

(٣) الحج ٢٧ — ٢٩ .

الإحرام عند الرجال ولكن هـذه الفكرة تغيب حين النظر الى ملابس الإحرام للنساء فهى الملابس العادية .. بيضاء تدل على نقاء النفس، ويستحب الجديد فيها بما يدل على الإقبال على الحياة .

ولاشك أن فكرة الموت ترد على الخاطر كفيلة أن تجعل الانسان يعيش حياته محاسبا نفسه بدقة ، و هى جديرة بأن تجعله يحترم الآخرين اذا ظن بهم الموت القريب ويعطف عليهم .. قدسية الموت تنفع الأحياء حين يعتبرون بها .

اليوم السادس:

يوم عادى .. فى بهجته ورواله .. المسجد الحرام يشدنا اليه،لاتطاوعنا قلوبنا على الرحيل عنه ونتصور كيف سنفقد ثواب المسجد حين السفر إلى القاهرة .. ها نحن نسمع الآذان فى المسجد الحرام فيخطر لنا المؤذن الأول بلال بن رباح ، عتيق أبى بكر الصديق ، إذ أمره الرسول فى غزوة الفتح أن يصعد على ظهر الكعبة بالآذان .

كنت أود زيارة للمناسك : منى وعرفة ومزلفة وهى شرقى مكة ولكنى قد مررت بها فى رحلتى السابقة ، وجوار المسجد أولى أن نلزمه .

فى المساء حركة نشطة فى المحلات التجارية،والأضواء الباهرة فى الشوارع تجعلك لا تحس فرقا بين ليل ونهار ... أدخل أحدها فما يلمحنى البائع حتى يطلب إلى برفق الخروج .. المحل مخصص للسيدات ، معى شقيقتى .. فيقول: المطاوع يكلمنى .. من المطاوع؟ إنه رجل للحفاظ على الآداب ، لقد جاء

فهلا بزيه الرسمى المميز بجاكت « كاكى » .. وقف خارج المحل هادئا غير متكلم ، ولكنه مرهوب .. الفتيات والنسوة يرفعن جزءاً قليلا جداً من الخمار ريثما يميزون الأصناف لونا وجودة ثم ينزلنه ليغطي الوجه كله ويعاون الحركة نفسها لصنف جديد .

وممنوع على النساء أن يقسن الملابس داخل المحل، يأخذنها البيت وعلى المحل التجارى أن يغير الصنف اذا لم يطابق المقاس ... لقد أخذ حقه ومع ذلك فطبيعة الأمور تلزمه أن يبدل الصنف .. ويصبر التاجر على امرأة — على تحجبها — تتأنق فى زيها ، فتتأنق فى الاختيار .

اليوم السابع :

أستقل عربة أجرة إلى جدة للتأكيد على موعد سفرى حيث المطار وشركة الطيران ، يخطر بالذهن ما تتألف منه السعودية التى تبلغ مساحتها ٢٥٣ ٣٠٠ ٢ كم² من أقاليم نجد والحجاز والحسا وعسير ، وصحراء النفود فى الشمال ، والجهات الجنوبية الغربية من الربع الخالى بينما يبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين أو أكثر بقليل فنقارنها بمساحة مصر وهى نحو مليون كم² وعدد سكانها يربو على الثلاثين مليونا . لقد تذكرت ما ورد فى كتب التاريخ أن زعماء قريش جاءوا النبي يشكون من أنه « ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشا منا » [1] ولكنها الآن فى مصاف الدول الغنية .

---

(١) سيرة النبي ٣١٦/١

وفى هذه البلاد يستخرج الذهب من « مهد الذهب » عند منتصف الطريق بين مكة والمدينة . وهى غنية بالبترول فى « الضهران » قرب القطيف جنوبا على الخليج العربى ، وتقوم آلات تكريره فى رأس التنورة الواقعة على الساحل .

ويعتبر إقليم الحسا أكثر الجهات خصوبة لما فيه من عيون الماء وهو ينتج أجود أنواع البلح بوفرة . فضلا عما يزرع فى هذه البلاد من فواكه مثل الموز والرمان ، والقثاء .. وما يصدر لها من بضائع من اليابان، هونج كونج ، تايوان ، باكستان ، سوريا ، لبنان ، المانيا الديمقراطية .

وقد شاءت العناية الالهية أن يطلق اسم هذه البلاد منسوبا إليه عبد العزيز بن سعود منذ سنين عددا[1]، الذى استولى على الحجاز سنة ١٩٢٦ وكان سلطانا لنجد وتوابعها وأعلن أن لقبه الرسمى « ملك الحجاز ونجد وتوابعهما » وفى سنة ١٩٣٢ أعلن هو تعديل اسم المملكة إلى « العربية السعودية » .

نعود إلى مكة حيث نمضى اليوم كله بها وفى الليل نستقل عربة أخرى الى جدة مع بعض الرفاق .. وذلك بعد طواف الوداع بالبيت العتيق .

ها هى الطائرة التى تقلنا الى القاهرة بعد ساعات .. مقاعد كثيرة قد تخلف أصحابها .. لابد أنهم سيتعللون إذا سألتهم جهات رسمية بعلل مختلفة ..

---

(١) أعلن مقتل الملك فيصل بن عبد العزيز عاهل المملكة العربية السعودية فى ١٢ من ربيع الأول ١٣٩٥-٢٥ مارس ١٩٧٥ برصاصة من فيصل بن مساعد ابن أخيه والعالم الإسلامى يحتفل بذكرى المولد النبوى الشريف .

ومخالفة ، ولعل السبب الحقيقى عدم استطاعتهم أن يتركوا الأرض المقدسة ، أرض المعجزات بسهولة :

وفى مطار القاهرة تعرض الحقائب على مسئول الجمارك . . سيدة تبدأ فى المغالطة فى تقدير قيمة ما معها . . معها كميات تجارية من صنف ما ولكنها تقول أنه لاستعمالها الخاص فأقول فى نفسى يغفر الله للناس إذ يخلطون عملا صالحا وآخر سيئا . . وقد وعد سبحانه أن يتوب عليهم .

المقالة الخامسة

أيام فى رومانيا

كان موعدنا إلى رومانيا فى ٣ سبتمبر ١٩٧٤ م رحلة جماعية لخمسة عشر يوما . تهبط الطائرة بميناء أثينا الجوى فننزل اليه عابرين Transit ، يمر أحدنا بعد الآخر على ممر يهتز بوقع الأقدام .. يضيء مصباح صغير عند مرور بعضهم فيسأله العامل المختص إذا كان يحمل أشياء معدنية ، فيخرج اليه بعض العملة المعدنية ويسأله أن يمر ثانية فيضيء المصباح أيضا فيسأله إذا كان معه معدنيات أخرى فيظهره على سلسلة مفاتيح .

ويتسلم الراكب عامل آخر بالمطار فيمرر يده على جسمه يتحسس إذا كان معه آلة حادة أو سلاح .. وبعد دقائق نعود للطائرة . ترانا نزلنا هذا الميناء للتفتيش وحسب ؟ يتكرر التفتيش بمطار بوخارست حيث تبعد عن أثينا ١٢٣٢ كم .. تثور منا النفس فتكبت ثورتها فنحن غرباء حقيقة .. غرباء اللسان ، وهذه أصعب غربة فيما أرى . إنه وسيلة التعبير العاقلة . الجمارك كلها - فيما قيل - تفعل ذلك بعد تكرار حوادث اختطاف الطائرات فيما عدا جمارك مصر . التفتيش الذاتى فيها بشبهة قوية ، وإذا أسيء استعماله كان المسيء موضع لوم .. أول صورة يتلقاها الزائر عن مصر التسامح مهما قيل عن تصرفات مشينة أحيانا .

نحن الآن فى رومانيا .. فى عاصمتها .. مدينة أنشئت فى قلب غابة .. هكذا تبدو فهى بلد زراعى كمصر ولكن مساحتها أقل من ربع مساحة مصر فمساحة مصر مليون كم ٢ ، ومساحة رومانيا ٢٣٧٫٥٠٠ كم ٢ ، تقع جنوب شرقى أوربا بين خطى عرض ٧ ٣٥ ٤٣° ، ٦ ١٥ ٤٨° شمالا ، وخطى طول ٤٤ ١٥ ٢٠° ، ٢٤ ٤١ ٢٩° غربا .

وتحد رومانيا من الشرق والشمال باتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، ومن الغرب بالمجر، ومن الجنوب الغربي بيوغوسلافيا. ومن الجنوب بلغاريا ومن الجنوب الشرقي بالبحر الأسود.

نقضى ليلتنا الأولى في بوخارست بفندق « مودرن » - هكذا اسمه أي حديث - إن له مع الأنفراج السياحي الذي بدأته رومانيا منذ سنين قليلة إيحاء طيبا، وهو مريح بعد نهار طويل بدأه أكثرنا من الفجر خوف فوات الميعاد المحدد للطائرة وما يسبقها من اجراءات.

إطلالة من شرفة الفندق تلحظ معها الخضرة تسود المدينة من عل. أشجار باسقة، زهريات في الشرفات.

أما الوجه الحسن الذي نلمسه في البشر فليس للغريب - في نظرى - أن يغفل كثيرا أو في كل الأحيان، فالرومانيون مزاج عناصر سلافية ومجيارية وألمانية وتركية مع الرومانيين الأصليين سكان ولاية داسيا الذين ينحدرون من عائلة هندو أوربية عظيمة (١)

وعدد سكان رومانيا نحو عشرين مليونا (٢) تتكون غالبيتهم من الرومانيين ٨٧,٨٪ وبجانبهم يعيش أيضاً مجريون وألمان وجنسيات أخرى. أما عدد سكان العاصمة فهو نحو مليون ونصف (٣).

---

(١) وقد هزم الرومان ولاية داسيا بعد عدة حملات عسكرية في السنوات المبكرة من القرن الثانى.

(٢) حسب تعداد يوليو ١٩٧٢ ٢٠ مليونا و ٦٦٠ ألفا.

(٣) « « « ١٩٧١ : ١١٨٨٣٢٨ نسمة.

وهم بيض البشرة ولكنه – فى نظرى أيضا – بياض « واقف » – إن صح التعبير – ليس فيه نصاعة أحيانا ، وبعضهم يميل إلى السمرة حتى لتحسب أحدهم أو إحداهن من مصر جمالا أو خفة دم ، وإن لم يخل هذا الجمال وتلك الخفة من لمسة حزن تعبر عنها العين فى بعض الوجوه .. هل هى وطأة الحياة ؟ ربما ، على أن جيل الشباب يبدو أكثر تبسما وجمالا .

وتمثل المرأة ٤٥٪ من القوى العاملة فى رومانيا ومعنى ذلك أنها تساهم بوفرة فى بناء المجتمع وتقدمه ، كما تعمل على زيادة النسل ولا يسمح لها باستعمال وسائل منع الحمل الطبية إلا بعد إنجاب أربعة أطفال .

وثمة مزارع مخصصة لغذاء الأطفال تتركدون تزويدها بالكيماويات لإنتاج أفضل طعام للأطفال (١) مظهر طيب للعناية بالطفولة .. عماد المستقبل .

وإذ نتحدث عن الجمال . والمرأة العاملة أذكر فتاة بفندق أقمنا به فى مامايا باهرة الجمال بحق يسألها صاحبى العجوز « ثمانين سنة » – وقد أعجب بها – من أى بلد أنت فى رومانيا ؟ فتقول : كونستانتسا ، فيقول : أكل فتيات كونستانتسا جميلات هكذا ؟ فتبتسم فى خفر يزيدها جمالا ، ويخشى العجوز الحرج فيقول مشيرا إلى : هذا الشاب أعجب بك فتبتسم ثانية قائلة : إنى متعبة ، طوال الليل أعمل فى الفندق .

وتثور فى صاحبى ذكريات سنين غبرت قضاها فى رومانيا . فى كونستانتسا فيطلب التوجه إليها ، إن بينها وبين ماميا ثلاثة كيلو مترات شمالا ، وعدد

---

(١) من حديث مع السيدة إلينا شاوشيسكو – قرينة الرئيس الرومانى . جريدة الجمهورية فى ١٩٧٤/٨/٢٩ .

سكانها يزيد على الألف بقليل .. أتراه يظن الجمال فيهم جميعا ؟ لا بأس فالمحبوبة هى العالم كله فى نظر المحب .

ومامايا بينها وبين بوخارست ٢٣٤ كم وهى مركز استجمام عالمى هكذا تصفها كتب الدعاية وكتب الجغرافيا ، تقع بين مياه البحر الأسود الزرقاء والمياه العذبة لبحيرة Siutghiol ولكنها عندى ليست بالشاطىء الذى لا يقارن . فالاسكندرية تحظى بشواطىء تفوقها جمالا كالمعمورة والعجمى ، ولكنها الدعاية الواسعة التى تجعل وفودا أوربية ضخمة تستجم بها .

وقد أقمنا فيها ستة أيام نزلت شاطئها — البحر الأسود — مرتين .. الماء أغلظ كثافة فيما نحس من مياه البحر الأبيض المتوسط . ذرات سوداء تعلق بالجسم قادمة من كونستانتسا حيث ترسو البواخر بهذا الثغر الهام ، ومدخل الثغر منخفض بينما المدينة خلفه على ربوة ، وقد أنشىء به ثغر اصطناعى به تيسيرات لشحن الحبوب إلى روسيا .

شىء آخر فى مياه مامايا . أجسام هلامية بيضاء تضغط عليها بأصبعك فتتمزق .. إن الأطفال يعبثون بها ولكن البحر خال من الصخر ، قليل الغور قريبا من الشاطىء ، فالناس تبعد فيه ولكنها لا تعوم ولا تمكث طويلا .. إن متعتهم الاستلقاء على الرمال .. ملاءة تفرش عليها أو حشية من المطاط .. قلما تجد شمسية إنهم يحبون التعرض للشمس من يعرض لها ظهره أو بطنه مادا رجليه أو ثانيا الساقين . رجالا ونساء فى ملابس البحر ، أما الأطفال فقد تجد بعضهم خالع لباس البحر ، وظل كما ولدته أمه .. قد يحدث هذا المنظر عند فقراء الناس فى مصر ، ولكنها فى المجتمع الأوربى تقوم على فكرة

عدم إبراز أهمية الأعضاء الجنسية بتغطيتها وقد أسماها القرآن «سوأة» (١) وأمر بمواراتها ، وعند التأمل لايمكن أن تستوى اليد مثلا بهذا الأعضاء .

وقد نجد من يستمتع بحمام طين . أو قل طين وشمس فهم يضعون على بعض الأعضاء طينا يشفيهم من أمراض الروماتيزم والنقرس .

هذا المنظر لانجده فى أيامنا بشواطئنا بالاسكندرية مثلا ولكن جالينوس يحكى أنه رأى بالاسكندرية مطحولين ومستسقين كثيرا يستعملون طين مصر ويطلون به على سوقهم وأفخاذهم وسواعدهم وظهورهم وأضلاعهم فينتفعون به منفعة بينة قال : وعلى هذا النحو قد يقع هذا الطلاء للأورام العفنة والمترهلة الرخوة .(١)

الهواء نقى عذب ، ممتع حقيقة ، لاضوضاء وموسيقى الجاز الصاخبة ليست من الضوضاء .. فى رومانيا .

وماماياكلها شاطىء أو بتعبير آخر امتداد للشاطىء ، فمن الممكن السير بملابس البحر فيها جميعا إلى الفنادق أو المتاجر ، وقد رأيت من يستلقى على جزء أخضر من أرض أمام الفندق .. لقد غضب المرشد من إفساد خضرة الأرض ، فلكى تخضر بذل فيها جهد ، وأنفق ماء ، ولذلك خسارة فى نظره إفسادها بالنوم عليها . ولكن السائح ضيف مدلل .

ويزين المنظر تماثيل متعددة بين خطوات وأخرى ، لقد شد انتباهى منها

---

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزيه ١٢٥/٣ . ط . المصرية بالقاهرة ١٣٧٩ هـ .

تمثال قريب من فندق « سلكت » أم تحنو على طفلها .. إن « ماما يا» في اللغة الرومانية معناها الجدة .. بعض التوافق بين الاسم والتمثال قلت ليت التمثال يكون أكبر التماثيل الموجودة في مدخل « ماما يا » .

ومن المصايف الرومانية جنوب كونستانتسا : إفورى على بعد ١٤ كم ، والمياه ببحيرة Techirghiol شديدة الملوحة كوستنستى على بعد ٢٥ كم ، نبتين « إله البحر عند الرومان » ٢٩ كم ، جوبيتر « كبير آلهة الرومان » على بعد ٤٠ كم ، فينوس ٤٢ كم ، ساتيرن ٤٦ كم والثلاثة الأخيرة تقع بجوار مدينة كلاتيس القديمة في القرن السادس قبل المسيح أو « مانجاليا » حاليا .

* * *

إستبدال العملة : ولعل من أسوأ الأمور أن تكون بين خضرة وماء ووجوه حسان ثم تعترضك مشكلة نقدية .. إن القانون في رومانيا يمنع إدخال اللوى — العملة الرسمية للبلاد — اليها كما يمنع إخراجها منها فيحذرنا المرشد السياحى من التعامل بالعملة في السوق السوداء كاشفا عن حيل تجارها ، فقد يعطى أحدهم عملة قديمة ألغى العمل بها ، أو أن يطوى ورقة العمله ومع سرعة العد قد لاتتبين أن الورقة المحمولة هى نصف ورقة في الحقيقة إلا بعد أن ينصرف التاجر .. وقد كان تحذيره في موضعه .. في كونستانتسا مجموعة من تجار العمله تلتقى بنفر من المصريين — وهذا يتكرر مع الغرباء عامة — تدخل معها مدخل فندق .. سعر التحويل مغر ، يقرب من ضعف قيمة

---

(١) وذلك في سورة الأعراف كما في الآية (٢٢) « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » ونرى أن سلوكهما هذا هو سلوك الفطرة .

التحويل من البنك (١) ، والتجار يريدون تحويل المبالغ الضخمة ،أما الوسيطة فينصرفون عنها . . والسبب أن تستغرق العملية وقتا ، وتضطرب الأيدى ، والنفوس فهذه مخالفة جسيمة ، وأثناء العد يصيح التاجر : بوليس . ويجرى مع نصيبه من المـال الحرام .

نعود إلى مامايا . . منظر النصب يتكرر فى حديقة . . فى جانب من شارع . هذا شاب ضحية عد له تاجر العملة مبلغا ضخما ، عده أمامه واطمأن إلى صحته لم يتبين أنه بخفة يد بدل اللفافة بغيرها . . فنقص المبلغ عشرين جنيها استرلينيا . . إنه ينتظره ليقبض عليه . . سذاجة أخرى هذا الظن ، إنه لن يظهر فى هذه المنطقة إلا بعد أن يختفى منها السائح إلى بلد آخر . .

هذه امرأة تذكر أنها من روسيا تقوم باستبدال العملة أيضـا بصوت خافت جداً . . أتراها قطعت ١٩٦٣ كم هى المسافة بين موسكو و بوخارست لهذا العمل هل وراءها عصابة من الرجال ؟ إنها لا تحول غير الدولارات فلما سئلت تحويل الاسترلينى ذهبت تستشير وعادت مرحبة . . هـذا شاب يريد العملة الأجنبية لشراء السجاير من محل لبيع المستورد بالدولار ، فثمة محلات لاتبيع الا بالعملة الصعبة ، ومحلات أخرى قليلة جداً تقوم بالتخفيض لمن يحمل إيصال استبدال العملة من البنك الأهـلى الرومانى ، ويشترى بمـائة لوى ، وأكثر بتخفيض ٢٠ ٪ .

---

(١) الدولار الأمريكى = ١٤ لوى Leu والاسترلينى = ٣ لوى تقريبا واللوى = مائة بانى Bani وهى عملة رومانية أيضاً .

في السوق : إن الأسعار تكاد تتفق وما الفناء بعصر في المصنوعات الجلدية مثلا ، والمأكولات عامة ، فبعضها يزيد زيادة كبيرة كملابس النساء حتى كانت موضع الدهش منا في بلد اشتراكي (١) ، وأعمال الإبرة والتطريز مجال تعميز به بلوزات الحريم والمعاطف الصوفية في رومانيا .

ولما كانت محلات البيع ملكا للحكومة بوجه عام فإن اللافت أن تجد في واجهات المحل ما يدل على تخصصه في الصنف الذي يبيع مثل كلمات ، « خبز » ، « خضراوات وفواكه » ، بلاج : أى مشتريات الصيف . آدم Adam أي ما يختص بملابس الرجال ، حواء Eva دون ذكر أسماء الأفراد .

على أن هناك بعض أفراد يبيعون المصنوعات الخشبية كأطباق الزينة وتجد عندهم المساومة في حالات قليلة جداً . وفيما عداها فإن الثمن محدد في مدن رومانيا جميعا مما يدعو إلى اطمئنان المشترى . وغالب هؤلاء من سكان الجبال يصعدون في الشتاء ويهبطون إلى المصايف للسائحين ، وقد تجد منهم من تعجبه مظلة سائح أو سوار ذهبي في معصم أجنبية ، فيتهافتون توسلا لشرائه بثمن زهيد ، وقد رأيت من أعجبت بصورة أنهر النول فاذا هي تضعها بالمحل في مكان بارز شاكرة لرفيقي دون أن تستأذن أول الأمر : ألفة عجيبة لا شك .

وترجع شهرة رومانيا بالحرف اليدوية التي تتميز بالألوان الدافئة والعميقة كالنقش على الأيقونات الزجاجية إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهم يذكرون أسماء لمشاهير الحرفيين : ماتي تمفريا ، سافو موجا ، لون بوب .

---

(١) جاكيت حريمي مطرز مثلا يعادل ٤٠ جنيها مصريا ويزيد .

والوقوف فى صفوف شىء عادى ، لا يثير اشمئزازاً أو ضيقاً كما ترى أحيانا فى مصر لقد تعود الشعب النظام ... أما عندنا فبلدنا رخاء منذ قديم فإذا شح وجود صنف بسبب الحرب تكالب الناس على المعروض منه خشية فوات الحصول عليه ، ويكثر التهازون ، ويزيد الاضطـــراب فى الصف ، ويعلو الصراخ فى رغبة جائعه طامعة .

والصف هناك من اثنين فصاعدا وقد رأيت رفيقى رحلة ينتظران الى المعروض أحدهما خلف الآخر بقليل ، وكاد الاخير يلتحم بالصف الواقف للشراء فأتت امرأة لتقف وراء زميلنا المصرى ظنا منها أنه فى الصف ... تلقائية عجيبة .

وطريقة الشراء فى مجمع استهلاكى للمواد الغذائية مثلا أن تدخل من باب فتجد سلالا من بلاستيك صغيرة تتناول إحداها وتجول فى المجمع تأخذ منه ما تريد من شاى - وهذه الكلمة بالرومانية أيضاً منتقلة من لغة جزر ماليزيا التى كانت المصدر الأول لهذه المادة ـ فلفل أسود - معلبات .. وغيرها وبكل منها الثمن .. وتتجه إلى الخزينة فيجمع لك المختص ما ينبغى دفعه عنها جميعا ثم تفرغ السلة وتضعها قريبا من باب الخروج وغالبا ما يكون المشترى يحمل حقيبة خاصة لوضع حاجاته بها دون أن يقوم المحل بتعبئتها توفيراً للورق .

ومما يتصل بالنظام حسن الذوق، بل إن الذوق هو الأصل ، فما احتككت عفوا بسائر فى الطريق مزدحمة حتى كان بادئا بكلمة الاعتذار ، إنه ذوق مظهره التعبير الجيد .

وفى الحدائق العامة من الذوق والتنسيق ما نشير اليه ، إن انتشار التماثيل فيها عمل طيب يبرز القيادة التى حكمت وشكلت من سلوك الناس وطباعهم وأفكارهم

الشيء الذي لا ينكر ، وقد شدني في كونستانتسا أن أعرف شيئاً عن « أوفيديو » الشاعر الروماني رافعا هامته وقد وضع ذقنه وصدغه في كف يسراه مسافة إلى اليمنى ينظر ويفكر بينما مررت بتماثيل الساسة وقد كتب على قواعدها سنتو المولد والوفاة دون انجذاب اليها .

دور العبادة : وفي ميدان « أوفيديو » بكونستانتسا أو قريبا منه تجد مسجداً (١) وكنيسة ومتحفا يونانيا وآخر رومانيا ، ولم نجد غير هذا المسجد وآخر في « مانجاليا » مبسط في بنيانه كما هو مبسط في تعاليمه - أما العاصمة نفسها فليس فيها مسجد . وما أن ندخل المسجد في مانجاليا حتى يتلقانا الخطيب بكلمات مشتاق أن يقولها لكل أحد دون أن يعرف دينه .. هي شهادة التوحيد ومحمد وعمر وعثمان وعلي والحسن .. ثم لا يعرف غيرها بالعربية فإن شئت كلمك بلغته التركية . وقد أخذنا المرشد على عجل دون أن نتمكن من صلاة الجمعة فيه على قرب موعدها ، لقد أحسست منه بعض التعصب ألا يدلنا على شيء من هذا المسجد غير أن بنته امرأة تدعى « أسمهان » في القرن الرابع عشر لقد قلت « التعصب » ربما ظلمته بهذه التهمة ، ففي براشوف ندخل الكنيسة السوداء - هكذا اسمها — متى أنشئت ؟ سنة ١٣٨٣ م ثم لا يزيد على أنها سميت بذلك لحريق أصابها في القرن السابع عشر .

---

(١) ذلك أن كونستانتسا وما يليها جنوبا جزء من (دبروجة) - هضبة بين الدانوب الأدنى والبحر الأسود - التي كانت تحت حكم الاتراك . وقد أعلنت بلغاريا استقلالها عن تركيا سنة ١٨٧٨ م واستولت رومانيا على شمال دبروجة ١٨٧٨ م وعلى جنوبها سنة ١٩١٣ م بعد هزيمة بلغاريا في حرب البلقان الثانية . وبالرغم من هزيمة بلغاريا في الحرب العالمية الثانية فقد استردت دبروجة الجنوبية سنة ١٩٤٠ م .

وعلى بعد نحو مائة كيلو متر من سيبى Sibiu فى طريق زراعى بجبلى دير كوزيا Cozia الذى أنشىء سنة ١٣٨٦ م بدهنا المرشد ندخل متحفا دون إيضاح ما به من صور فى القرن السابع عشر، ومخطوطات مسيحية، ومباخر، وكأس المناولة .

ربما كان السبب خفة العقيدة الدينية عنده أو فى شباب الغرب عامة ، أو الجهل بأخبار هذه الآثار وإن كانت ملاحظتى فى دير كوزيا أن التأثر الدينى بدا واضحا جداً فى وجوه الشيوخ الذين كانوا يصلون يوم الأحد . ير كعون ، يبكون ، فى شغل عن المار أمامهم أو بجوارهم ، ولكنك قد تشغل عن النظر إلى الكنيسة بالنظر إلى هؤلاء . إنهم يدعون من الله . المجيب المضطر إذا دعاه .

إن حرية العبادة مكفولة للأفراد وأكثر الكنائس انتشارا فى رومانيا الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية.

الشباب : وفى الصورة المقابلة . فى الحدائق والمتنزهات قد نجد شابا يخاصر فتاة .. شىء عادى أمام المارة ، ولهذا لا يلتفتون اليه ، على غير الشأن فى البلاد الإسلامية عامة ، إن لمسة يد فتاة من أجنبى لا ترضى بها فتاة محترمة ، أمام العيون خاصة .

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن رومانيا كانت سباقة فى كشف العقار الطبى هـ ٣ وكان له دوى وشهرة مقترن بصاحبة الاختراع الدكتورة الرومانية أنا أصلان فهذا العقار يعيد الشباب إلى الشيوخ .. أمنية غالية منذ القدم .

وقد قام معهد أبحاث الخلايا الألمانية السويسرية باضافة أنواع البينة من فيتامينات وأملاح وغيرها كما طورته العالمة الرومانية وأصبح اسمه اكس ٤ ولايزال الاهتمام بهذا الأمر الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فالشباب والجنس حياة كثير من الناس أو قل هما الحياة ، ومن أمثال الرومانيين ما ترجمته الملابس والخبز والجنس هى الحياة الرغيدة بل إن كلمة الخبز تكاد تتفق فى نطقها وأعضاء الجنس فى اللغة الرومانية فيما حدثنى أحد المصريين .. إلا إذا كان اشتبه عليه فكشف عن أعماقه.

وفى أحد الفنادق بما مايا تستقبلنا عاملة عجوز فى مرح الشباب فكان أول سؤال : هل أنت عزب ؟ هل ستقوم بالسباحة فى البحر ؟ فأخبرها . نعم فترد فى ابتسامة : Good ! مع غمزة من عينها أفهم منها : إننى «أعرف» شقاوة الشباب وتنهض فى مرور بحضرة فوطة وبعض النشرات السياحية . فأسألها بالانجليزية اذا كانت تحضر أيضا Soap فلا تفهم معنى الكلمة فأقترب من الحوض مع حركة من الكفين تشير إلى غسلها فتنطق على الفور صابون . هكذا كما تنطقها بالعربية ، نعم إنها بالرومانية أيضاً . مع ضمة من الشفتين أكثر .

* * *

اللغة الرومانية .

وتبين لنا أن كلمات نعرفها بالعربية هى أيضاً فى اللغة الرومانية ككلمة شراب التى تنطقها بالعامية وتقصد بها الجوروب هى عندهم بالمعنى نفسه بضم الشين ، وصندل وحمال Hamal وخريطة Harta وكبريت .

ويطلق على محل السجاير Tutungerie ، وتوتن بالتركية تعنى الدخان .
ومن المأكولات فاصوليا Fasole ، أرز orez ومن أثاث المنزل إبريق un ibric ، ودولاب un Dulap ، كنبة O canapea ! – وإذا كانت اللغة الرومانية لاتينية الأصل (١) فقد اغتنت خاصة بعناصر سلافية وقد تسرب إلى لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبين الصقلبية والمجرية لما أحاط بها من جميع جهاتها من أمم صقلبية اللسان أو مجريه على حين أن أخواتها اللاتينية الأصل (الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية . الخ ...) لم تكد تتأثر بهذين اللسانين وذلك لأن رومانيا قد انعزلت عن أخواتها اللاتينية (٢) .

وابتداء من القرن التاسع عشر اقترضت الرومانية عدداً من الكلمات ذات الاستعمال العالمي للضرورة العلمية والفنية .

بوخارست : Bucuresti

نعود إلى بوخارست تلك المدينة التي تنمو أفقياً ورأسياً .إن عمرها الذي تثبته الوثائق كما يقول المرشد السياحي أكثر من خمسمائة عام ولكنها تبدو شابة في شوارعها العريضة التي تكتنفها الأشجار وميانيها الأنيقة التي لا تجور على الرقعة الخضراء ، فالمساحة المخصصة للمباني ١٦٢ كم ٢ أي تزيد على سدس مساحة بوخارست بقليل (٣) وهم يميلون لهذا الغرض إلى الارتفاع في المباني حيث يوفر كثيرا من التكاليف ، ويوفر كثيرا من مشكلات المرافق العامة والمواصلات . ويثبت سعر الأرض .

(١) بمعنى احتفاظها بالتركيب النحوي والمفردات الأساسية للغة اللاتينية.
(٢) اللغة والمجتمع ـ دكتور على عبد الواحد وافى ـ ط ١٩٧١ .القاهرة.
(٣) مساحة بوخارست ستمائة كيلو متر مربع .

جولة حول المدينة . مبنى الجامعة ، متاحف ، فنادق ، مبنى اللجنة المركزية العليا للحزب الشيوعى ، وأمامه فضاء فى الطريق منعنا الشرطى أن نمر عليه . . وفيها من دور السينما نحو ستين فضلاً عن المسارح وصالات الحفلات الموسيقية وأنديتها الليلية الساهرة حتى قبيل الفجر .

إن بوخارست على بعد ستين كيلومترا من الدانوب ، ومائة كيلو من مرتفعات الكربات ويذكر المرشد أن نهر الدانوب يعتبر ثانى نهر فى العالم ، (لعله نسى نهر النيل فهو الثانى بعد المسيسبى) ،وهو يمر بثمانى دول ، ولكن أكثر مروره برومانيا بطول قدره ألف وخمسة وسبعون كيلو مترا .

سيبى : Sibiu

وكان من برنامج الرحلة أن نمضى أياماً فى بوخارست ثم نزور الجبال الرومانية ، ولكن بوخارست فيما قيل ليس فيها أماكن خالية بفنادقها ، لقد تفتق ذهن المسئولين على أن نقطع كيلو مترات عديدة . . عديدة إلى سيبى أهم مدن حوض ترانسلفانيا فى رومانيا لماذا ؟ لكى نبيت فقط . إن هذا السبب لا يقنع فريق الرحلة ، فيقولون فلا يدخل فى ذهن مثلا أن ينتقل سائح من القاهرة إلى الاسكندرية ـ والاسكندرية ما هى ـ للمبيت فحسب، لا بد أن يستمتع بجو يختلف عن جو القاهرة وآثار لا يراها فيها أو وسائل ترويح لا يجدها فى القاهرة . . أو غير ذلك مما يثير تطلعا ، ولكن المرشد لا يظهرنا على شىء من هذا فى سيبى . . إنما هى جولة حرة .

وتسوقنى قدماى إلى حيث لا أدرى الهدف إلا أن أمضى وقتا فى بلد غريب :

مشيناها خطى كتبت علينا ∴ ومن كتبت عليه خطى مشاها

هاهو شرطى قد رأى منى تأمل الغريب فيستوقفنى مستفهما : إنجليزى أنت فأقول : مصرى ، فيرفع حاجبيه دهشا قائلا : good .

إن كلمة الاستحسان هذه أحس بها تملأ صدرى انشراحا هل يعرف الشرطى انتصارنا فى رمضان ؟ هل يعرف حضارتنا ؟ لابد أنه يعرف شيئاً من هذا .. قد يكون قالها كلمة عابرة تحية لسائح . ولكن هذا الاحتمال لا يبادر إلى ذهنى فى ذلك الوقت ... بل إنى أحس أن حراسته وجهت إلى على بعد كيلو مترات حتى رأيت محطة السكة الحديد فتذوب مشاعرى فى الناس .. يقطعون التذاكر ، وقوف وجلوس ينتظرون ، يمرون ، وحدى غريبا لا يفهمون منى لغة ولا أفهم منهم ، ولا أحاول . فالنظر وحده متعة فى بعض الأحيان .

هاهو بائع لورق النصيب يرطن بلغة لا أعرفها ولكن يصدر بين الحين والآخر من كلمة جميل وقعها عندى « صلاة النبى زين » وقد تكون فى غير موضعها ولكنه فى ندائه الهادىء يستوقف بعض المارة للشراء بشىء من الأمل ، قد لا يكسبون فينصرفون وفى النفس حسرة ما أغناهم عنها لو لم يؤمنوا بورق النصيب وآمنوا بأنه ما كان لهم ان يخطئهم وقد يكون فى الوجه أحياناً ما يدل على عدم الاهتمام بالكسب . ولكن المشترى يعبث .. أو يزجى فراغا وحسب .

أدخل أحد المحلات لشراء الهدايا فيعجبنى توافق الجمال فى البائعة والمبيعات فتختار لى ما تعجب به . ولا أنسى سيبى من أجله .. وقد وددت أن يمتد حديث بينى وبينها وهى تتحدث الإنجليزية بوضوح ، ولكن حان موعد إغلاق المحل وغدا الأحد .. موعدنا لمغادرة سيبى .

في الكربات Carpathi :

ننطلق بسيارتنا إلى مناطق الجبال الرومانية :

١ ـ سينايا : وهم يطلقون عليها في إعلاناتهم لؤلؤة الكربات، ارتفاعها ٧٩٠ ـ ٩٧٠ متراً ، وهي على بعد ١٢٧ كيلو متراً من بوخارست ، وخمسة وأربعين كيلو متراً من براشوف ، وبها ينابيع المياه المعدنية .

ولعل القارىء يتبادر إلى ذهنه مثلي حين يقرأ الحروف اللاتينية Sinaia أن المقصود شيء ينسب إلى سيناء مصر ، وقد قيل إن أحد نبلاء رومانيا زار سيناء سنة ١٦٣٠ م وأخذ الطراز المعماري لدير سانت كاترين فيها لتبنى كنيسة على طرازها في بقعة من رومانيا أطلق عليها كلها اسم سينايا « نسبة إلى سينا »(١) .

٢ ـ بريدال predeal ارتفاعها ١٠٤٠ ـ ١١٠٠ متر ، وهي على بعد ١٤٧ كم من بوخارست ، وخمسة وعشرين كيلو متراً من براشوف .

٣ ـ بويانا براشوف poiana Brasov ارتفاعها ١٠٤٠ متراً ، وهي على بعد ١٧٥ كم من بوخارست وثلاثة عشر كيلو متراً من براشوف Brasov أحد المراكز الصناعية الأساسية في رومانيا .

وفي برنامج رحلتنا زيارة قلعة Bran التي بنيت في القرن الثالث عشر بينها وبين بويانا براشوف خمسة وأربعون كيلو متراً قطعتها السيارة في نحو ساعة من نهار ، وبينها وبين براشوف ٢٨ كم وفي الطريق إلى القلعة قرية ألمانية تتميز بيوتها الواطئة وأبوابها العريضة ، وخوخة بجدار الباب ، منطقة هادئة تدب الحياة فيها بنفر يبيع نماذج خشبية للقلعة وشيلان صوف مما يتميز به سكان الجبال

---

(١) جريدة الأهرام في أول ديسمبر ١٩٧٤ .

وقد يختلف النظر فى أيها أجمل جبال لبنان أو إيطاليا أو رومانيا فبعضهم يرى الأخيرة أجمل وعندى أن يد الإنسان الصناع أوضح فى جبال إيطاليا، وجبال لبنان إذا شبهت بفتاة أنيقة رشيقة فجبال رومانيا تبدو امرأة مترهلة الجسم، ها نحن نرى فيها قطارا للبضائع، وبيوتا متناثرة هنا وهناك، من دورين .. تلك نظرتنا سريعة . وعلى البعد .

وعلى الجبل فى الطريق إلى براشوف مساء تجد المصابيح قد أضاءت كحبات من الماس منبعث ضوءها من البيوت والطرقات .

ونبيت ليالى بفندق Sport فى بويانا — براشوف، وقريبا منه يوجد مجرى مائى أشبه بحوض سباحة كبير يستغل ماؤه فى النزهة بقوارب صغيرة وعمقه نحو سبعة أمتار . وهو منظر فطرى لا تجد فيه من صنع الإنسان شيئا يضفى عليه جمالا .

وينتشر نوع من الشجر يدعى Brad يزرع خصيصا فى الجبال كما يقول المرشد ويظل أخضر طوال السنة ولو نزل عليه الجليد، فروعه أشبه بمروحة يد .

ولقد أعجبت بمنظر لو وجدناه فى القاهرة أمام فندق سياحى لانتقده الرأى انتقاداً مرا .. قطيع من الغنم والبقر والجاموس يرعى أمام فندق sport .. لقد وصلنى هذا المنظر بالبيئة العربية التى أوحت لزهير بن أبى سلمى بقوله :

بها العين والآرام يمشين خلفة .·. وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

إنه يتحدث عن البقر الوحشي والظباء خالصة البياض ، ولكن المنظر أمامنا قطيع من الخراف بيضاء اللون .

إن وجه الشبه مايحس به المرء في الصورتين من البعد عن التفكير والسهو في تلقائية ، إنه إحساس مريح في بعض الأحيان ، ولكن لايعيش إنسان عظيم في كل الأحيان ، كما لاتعيش أمة في إسار حديدي منغلقة عما حولها من الثقافات والنظم .

وقد أدركت رومانيا ضرورة الانفتاح على العالم فبعد أن كانت علاقاتها سنة ١٩٤٧ مع خمس وعشرين دولة (١) نظمت علاقاتها مع أكثر من مائة دولة في المجال الدبلوماسي والاقتصادي كما أقامت علاقات علمية وثقافية مع أكثر من ثلاثمائة منظمة حكومية أو غير حكومية في القارات جميعاً .

نعود إلى بوخارست ، وفي خاطري أن بلاداً حباها الله بالطبيعة الخلابة جديرة بأن يعيش أهلها سعداء إذا ساروا على سنة العدل في توزيع الدخل القومي حسب العمل وما يقدمه كل منهم لبلده خالصاً لوجه الله .

وبعد يومين تطوى بنا الطائرة أجواز الفضاء في نحو ثلاث ساعات من بوخارست إلى القاهرة . . وما أقرب ما بين الشعوب .

---

(١) الأهرام في ٢٣ / ٨ / ١٩٧٤
ويعتبر يوم ٢٣ أغسطس عيدا قومياً في رومانيا تعطل فيه الأعمال الحكومية .

المقالة السادسة

لبيك حجا

بين يدى الحج :

كانت لفتة كريمة أن يعطى السيد مدير عام الجمارك (١) توجيهاته بأن يندب لمأمورية الحج زملاء لم يندبوا الأعوام الماضية.

وتوجيه المدير العام نبع من سياسة الدولة فى عهد مبارك إن شاء الله ، فقد كشفنا جولة الحرب والسلام مع اسرائيل أو كدنا نكسبها تماما ، ولم يبق إلا أن تستريح النفوس وتعمل فى طمأنينة لا تتكالب على مغنم رخيص تكالب القطط الهائمة على أشواك السمك :

والعجب أن ظللنا ننادى بتكافؤ الفرص مبدأ من مبادىء الاشتراكية ولكن الرأى العام الجمركى لم يستطع أن ينادى بتكافؤ الفرص فى بعثات الحج أو نادى ولم يجد نداؤه شيئا .

وقد ظل الحج بالقرعة، وتحايل أناس كانت العقلية التجارية همهم الأكبر يبيعون ويشترون فظهر الحج العادى والحج السياحى بتكاليف أكثر ، والحج بدعوة بلا تحويل عملة مصرية إلى سعودية إلى أن ألغيت القرعة هذا العام (١٣٩٥ﻫ) واستعدت شركة الطيران المصرية لتدافع الناس كما يتدافعون لنيل سلعة بالبطاقة التموينية فإذا الأمر على غير ما توقعت واستعدت فقد اطمأن الناس

---

(١) رقى وكيلا لوزارة المالية لشئون الجمارك بعد عودته من الحج .

أوزادوا إيمانا بأن الأمر بيد الله من قبل ومن بعد إن شاء كتب لهم حجا مبرورا « وجاهدوا فى الله حق جهاده، هو أجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (١)

ومنذ أن دونت اسمى فيمن يريدون الحج أحسست أنى فى الحج فعلا فمسئولية الحاج أن يحفظ لقب « الحاج » عظيما لا يثير سخرية بين ضعاف الدين حين يرون ممن أدى الفريضة لا يعرف منها غير شكلها .. إنها مسئولية جهاد النفس .

وحين يكثر الحاج فى مصلحة حكومية كالجمارك تكون هذه الكثرة مؤشرا إلى صلاح بدأت تعرفه - أوهكذا المفروض - بعد أن انهالت أقلام الكتاب فى الشهور الأخيرة طعنا فى ضمائر الجمركيين عامة .

وحين يكون الحجيج من الشباب فإن هذه الظاهرة تكون مبعث سعادتنا وغبطتنا بعد أن استقر فى الأذهان أن الحج لكبار السن بعد أن يعبوا من لذائذ الدنيا عبا .

ولقد تعودت أن يكون المصحف الشريف قريبا من عينى فى حجرة نومى لكيلا يتخذ مهجورا أتصفحه، وقد أكتفى بآية كيفما أتفق فإذا هى بشير أو نذير يكون له أكبر الأثر فى النفس أبدأ بها يومى أو أنهيه أو أتوسطه .

وقد فعلت كما تعودت ، وأنا أعد حقائبى للسفر ، استغفر الله . حقيبتى للسفر فلست ميالا لكثرة الحقائب فانى أحب أن أتخفف فى هذه المناسبة

---

(١) الحج ٧٨

خاصة . فإذا ضفحة المصحف على سورة الحج أقرؤها كاملة (١) ، إنها تبدأ بوعظ الناس كافة بتقوى الله « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » .

إن خروج الحجيج جماعات جماعات يذكر بهذا اليوم ، ويذكر بالبعث الذى تناولته آيات من بعده .

وتنتهى السورة بأمر تستقيم عليه الجماعات هو « فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » .. فكان « النصير » فى آخر السورة هو المطلب الذى يريد الناس فى زلزلة الساعة كما تحدثت السورة فى أولها .

* * *

فى يوم التروية : نتجه إلى مطار القاهرة فأفضى إلى بعض صحبى بهوى النفس إلى الكعبة فيشاركنى هذا الشعور قائلا إنها دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

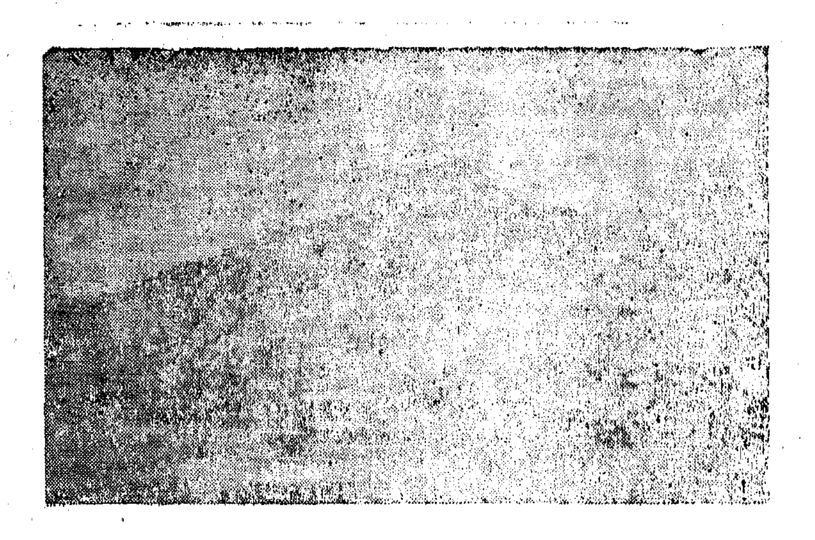
« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (٢)

---

(١) ونحن لا نفتح المصحف لنتفاءل تفاؤل العامة بالمصحف وآياته مما يعيد إلى الذهن عادة من عادات الجاهلية الأولى مع أن الأسلام طمس هذه العقيدة العاطفية السخيفة إلى غير رجعة وإنما هو هدى للمتقين.

(٢) إبراهيم ٣٧

ونحرم ثم نحلق الطائرة إلى جدة والشوق يدفعنا إلى مكة لنطوف طواف القدوم والسعى ، لم يبق إلا نهارنا الذى نحن فيه،فغدا وقفة عرفات (١) ،ذلك الوادى الفسيح الذى يبعد عن مكة نحو ٢٥ كم، ويتسع لأكثر من مليون ونصف حاج،هم عدد زوار بيت الله هذا الموسم فمساحته نحو أحد عشر كم مربعا .



إلى جبل عرفات

في عرفات :

لقد كنا فى عجلة من الأمر نسيت معها أن أشترى غطاء ألتحف به ، ولا يخلو

---

(١) وافق الخميس الحادى عشر من ديسمبر ١٩٧٥ ويسمى اليوم الثامن من ذى الحجة يوم « التروية » ولعل تسميته بهذا الاسم ترجع إلى أن الناس كانوا يأخذون فيه الماء من ذى المجاز ليرووا منه بعرفة والمزدلفة حيث لم يكن يوجد ماء فيهما، وإذا وافق يوم عرفة يوم جمعة فلا جمعة فى هذا اليوم .

الجو من برودة . ولكن قوى النفس أمضى من الجو الخارجى إذا صدق العزم . ونبيت ليلة الوقفة فى مسجد نمرة وفى الصباح نتجه إلى جبل الرحمة نصعد إليه على قدر الطاقة واكتفى بالصخرات الكبار أسفل الجبل بينما ظل بعض الرفاق لا يصعدون ، فعرفة كلها موقف . داعين بما نشاء نبتهل إلى الله ملبين « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك »

إنها كلمات التلبية التى لم تفارقها منذ غادرنا القاهرة ، تحمل الوحدانية والحمد على نعمة الإسلام وهى أكبر النعم ، وقدرة الله على كل شىء .

إن رد الملائكة على الصالحين « لبيك وسعديك » أما غيرهم الذين قاموا إلى الحج بالمال الحرام فترد الملائكة على كل منهم « لا لبيك ولا سعديك » لابد أن يعرف الناس هذا ليقل عدد الركب إلى البيت الحرام ، فيأخذ الصالحون مكانهم إليه .

إلى المزدلفـــة :

نجمع فى عرفة بين صلاتى الظهر والعصر جمع تقديم وقصر حتى إذا ما غربت شمس التاسع من ذى الحجة لا ينتظر الحاج صلاة المغرب ، فالسنة أن يصليها بمزدلفة مع العشاء جمع تأخير بأذان واحـــد وإقامتين ، أفواج تأخذ الطريق على الأقدام ، فالمسافة بين عرفة ومزدلفة نحـو اثنى عشر كيلو متراً بينما تركب أفواج أخرى السيارات ، لا حوادث حيث كثير من الحوادث يظن أن يقع فى هذا الزحام المتلاحم ، إلا إذا استثنينا القليل أن تغرز سيارة فى رمال جنحت إليها .

وفى مزدلفة نفترش الأرض فلابد أن نقيم فيها شيئاً من النصف الثانى من الليل وإلا كان علينا ذبح فدية ، نجمع الجمرات تسعا وأربعين ، ونزيد عليها ما نحتاط لخشية فقد بعضها وأهم أن أنظفها مما علق بها من طين فأتذكر أنها لرمى ابليس فأبقى عليها مادامت لا تحمل نجاسة (١) .

ونصلى الفجر فى مزدلفة ثم نقف بالمشعر الحرام ، وهو تل صغير آخر مزدلفة يسمى قزح ، ندعو الله عملا بالآية الكريمة « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » (٢) .

في يوم النحر :

وقبل أن تطلع شمس العيد ننتقل بالسيارات إلى منى - بكسر الميم ، وينطقها العامة بالضم كأنها عندهم جمع منية - ويسلك السائق بطن محسر - بكسر السين وتشديدها - ، وهو الحد الفاصل بين مزدلفة ومنى ، ومحل هلاك أصحاب الفيل ، ونطلب إلى السائق أن يصل بنا إلى السبيل المصرى حيث يقيم الحجاج المصريون ولكنه يعتذر بأن حريقا شب قريباً منه .. لقد كنا رأينا آثار الدخان فى الطريق فظننا أن الأمر يسير ولكنه كان أبعد مما نتصور فقد انفجرت أنابيب البوتاجاز فى الخيام المنصوبة فأتت على من شاء الله ، وماشاء الله من أمتعة الناس وسياراتهم . ولله فى خلقه شئون فنقنع بأن نفترش الأرض

---

(١) إذا رمى حاج بمتنجس أجزأه وندب أن يعيد بطاهر ؟ ؟

(٢) البقرة ١٩٨

كما افترشناها الليلة السابقة ، ونصلى الظهر فالعصر بمسجد الخيف بمنى ثم نأتى إلى جمرة العقبة لنرمى فيها سبع جمرات مكبرين مع كل حصاة (١) .

وقد أحس بسداد الرمية عند كل حصاه فأنا ألقى بها عدوا بينا يتمثل لنا فى هذا الموضع : إنه الشيطان الذى نصفه غالباً بالرجيم ، نرجمه فنحس الراحة بحق ، أنظر إلى الناس فى حماسهم فأحس هذا الشعور فيهم ، ولو اسم الإنسان إلى نفسه ـ دون الشيطان ـ كل خطأ أو خطيئة لهلكت نفسه ندما وحسرة ، لابد أن ينسب الشر إلى قوة خارج النفس يوعز إلى النفس ويغريها . . إنه الشيطان .

يحلق الحاج الشعر أو يقصره قائلا : اللهم هذه ناصيتى بيدك : والتحليق أفضل فهو من أبلغ أنواع العبودية ، ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعتقه حلقوا رأسه وأطلقوه (٢) ، وقد عد الشافعية حلق الشعر أو تقصيره ركنا من أركان الحج لا يتم إلا به (٣) .

وفى اليوم التالى نرمى الجمرات الثلاث مبتدئين بالجمرة الدنيا ـ وهى التى تلى مسجد الخيف ثم الوسطى ثم العقبة . . كل جمرة سبع حصيات مع « بسم الله والله أكبر » مع الدعاء بعد الرمى ، الأول والثانى .

ها هو رجل استخف نفسه واستظرف مع رفاقه المصريين يرمى السبعة مرة واحدة لماذا السبعة ياهـذا والواجب أن ترمى الحصيات متتابعة؟وددت

(١) والأصل أن ترمى الجمرة قبل الزوال .

(٢) الطب النبوى ص ١٢٥ . ابن القيم .

(٣) الأركان الأربعة هى الإحرام ، طواف الإفاضة ، السعى بين الصفا والمروة ، الوقوف بعرفة . . الفقه على المذاهب الأربعة ص ٣٥٥ .

أن أنصحه أنه لو رمى أكثر من واحدة فى مرة واحـــدة حسب ذلك واحدة (١) ولكن ألجمنى حمقه ، ولعلى أخطأت فى عدم إسداء النصح .

كما نهى رسول الله ﷺ أن تكون الحصاة كبيرة فلا مغالاة فى الدين .

وقد كنا نسمع من يرمى بالنعال وإن لم نر هذا المنظر وهو مايجعلنا نشير إلى أن الرمى الواجب بشىء من جنس الأرض (٢)

بقيت معنا إحدى وعشرون حصاة نرمى بها الجمرات الثلاث: الدنيا والوسطى والعقبة على الترتيب فإن عكس حاج هذا الترتيب سن له إعادة الرمى (٣) ، فنظل بعد منتصف الليل لنرميها كما فعلنا فى اليوم السابق ، وقد تعجل الرفاق إلى مكة كما يقول الله « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه » (٤) ولكنى أحببت منى وزادنى شوقا إلى البقاء فيها خشية ألا نعود إليها، والحج فرض مرة واحدة برغم ماهى فى حاجة إليه من زيادة دورات المياه مثلا وإنشاء المنازل المريحة لأفواج الحجيج وحبذا لو تضافرت جهود الحكومات للنهوض بالمرافق العامة جميعا ، وقد بذلت الحكومة السعودية جهدا هذا العام بإقامة جسر يتمكن الناس به من رمى الجمرات فى يسر ، وأزالت المبانى التى كانت قريبا من الجمرات فاتسعت الطريق للقادمين ..

* * *

(١) الفقة على المذاهب الأربعة ص ٣٧٣ ـ ط . الشعب ١٣٨٠هـ ـ القاهرة

(٣،٢) المرجع السالف ٣٧٤

(٤) البقرة ٢٠٣

مكة والتوحيد : نذهب إلى مكة لنطوف البيت المعمور طواف الإفاضة ، وإذا الرفاق يتعجلون أيضاً الذهاب إلى المدينة المنورة فيظهر صوت إن المال معنا قليل ، ولهذا لم نسق هديا ، وأدينا الحج بنية الإفراد ، والصلاة في المسجد الحرام أضعاف أضعاف الصلاة في المسجد النبوي ذلك إلى أن الركعة في المسجد الحرام تعدل مائة ركعة في المسجد النبوي كما أن زيارة المدينة المنورة ليست من مناسك الحج وقد سبق زيارتها ، ونأمل أن نزورها في قابل أيامنا فيقتنع بعض الرفاق بهذا المنطق بينما غذ بعضهم المسير إلى المدينة المنورة شوقا إلى مناجاة الحبيب المصطفى — ﷺ — برغم تكاليف الانتقال وفي الذهن حديث شريف « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » وبيته هو مدفنه — ﷺ — والشيء المؤكد أن الرسول — ﷺ — رأى في هذه البقعة التي حددها من راحة النفس ما وصفه بأنه جنة أو روضة منها ، فهل هي روضة لكل زائر وكل مصل في هذه البقعة ؟ (١) إن الأساس هو قلب

(١) يقول الأستاذ محمد حامد الفقي إن حديث « ما بين بيتي ومنبري .. » واقعة حال يصف فيه الرسول — ﷺ — ما جلا الله له في ذلك الوقت الذي قام يخطب فيه يوم موت ابنه إبراهيم ، وصادف يوم كسوف الشمس ، فانتهز اليهود الفرصة وأشاعوا أنها كسفت لموت إبراهيم فغضب ﷺ لربه أشد الغضب فجلا الله فأراه الجنة في هذا الحين ما بين بيته ومنبره . ودعوى أنها بقيت كذلك روضة من الجنة لا يقوم عليها دليل .

مدارج السالكين — ابن القيم ٢٤٩/٣ « حاشية » :

وهو استنتاج للشيخ لا نعرف دليلا يسنده ،

والواقع أن كل ما يقرب إلى الله يعتبر سبيلا إلى جنة الله

المؤمن الذى يقترب من قلب رسول الله ، فيستوعب كتاب الله وسنة رسول الله استيعابا حسنا فهما وسلوكا وقولا .

وقد كنت ممن آثر البيت الحرام لاأشبع من الطواف حوله ، تذكرت أستاذى ابن قيم الجوزية ووصف الواصفين له أنه حج مرات كثيرة وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمرا يتعجب منه .

كيف قفزت سيرته إلى ذهنى على بعد نحو ستة قرون ونصف قرن من الزمان ؟ إنه قبس من السيرة المحمدية ، تستجلى النبوة فى سلوكه . ومن هنا كانت قوته وإمامته على مر العصور ، وما أجمل أن يكون الانسان عالما عابدا .

وصور العبادة وأساسها شهادة التوحيد ، ظل رسول الله - ﷺ - فى مكة قبل هجرته إلى المدينة نحو ثلاثة عشر عاما يعلمهم ألا إله إلا الله ، وتشاء إرادة العليم الحكيم أن تكون مكة أيضاً ملتقى الحجيج من جميع بقاع الأرض على مر الأزمان ليقروا بالتوحيد ، قبلة واحدة ، يطوفون حول بيت الله لا اختلاف بينهم ، ثم يصلى الحاج عند مقام إبراهيم - عليه السلام - ركعتين يقرأ فيهما بعد الفاتحة « قل يا أيها الكافرون » رافضا عبادة الكافرين التى تخرج عن التوحيد و « قل هو الله أحد » التى تؤكد وحدانية الله .

ومن مبدأ التوحيد تكون قوة الفرد ، وعظمة الأمم ، إذ لا أهواء يكون الإنسان عبدا لها ولا مطامع تتوزع أفكاره وجهوده ، وإنما سعى دائب لله ،

يقول أحد طواغيت الاستعمار مستر سنوك « إن مكة المكرمة ليست مجرد مركز ديني ، ولكنها مركز سياسي أيضا للمسلمين ومنهم الإندونيسيون ، لذلك يجب على الساسة الهولنديين في إندونيسيا مصاحبة رؤساء الإسلام إلى تلك المدينة المقدسة ليعرفوا ما يجول فيها ، وما هي التعليمات التي يتلقونها »(١).

الدين وهوى النفس:

إنها تعليمات السماء يحسها الفرد مسلما خاضعاً لله ، ولا جدال في الحج ، ولا خصومة ، ولكن أولياء الشيطان يخيفهم الشيطان من المسلمين في مكة ، والمسلمون أجدر أن يهابهم العدو بعد أداء فريضة الحج خاصة ، فهي الركن الذي يكتمل به بناء البيت الإسلامي . ولكن حال كثير من المسلمين أنهم يسعون إلى الحج ويشتاقون للعودة إليه استجابة لحظ النفس لا لحق الله كما حكى من بعض الصالحين قال : حججت كذا وكذا حجة .. فبان لي أن جميع ذلك كان مشوبا بحظي ، وذلك أن والدتي سألتني أن أستقي لها جرعة ماء فثقل ذلك على نفسي ، فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجات كان بحظ نفسي وإرادتها إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في شرع الله »(٢) .

أرأيت المعيار الذي اتخذه هذا الرجل الصالح لقد استطاع الحج مرات على ما فيه من مشقة ولم يستطع ما هو أيسر بكثير لأن في الأول هوى النفس

---

(١) إندونيسيا ص ٥٤ - محمود شاكر . الدار العلمية — بيروت ط . سنة ١٩٧١ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ٩٩ - ط . دار الكتاب العربي . بيروت هـ - سنة ١٩٧٣ م .

دون الثانية وقد أمر الله بها جميعا . نسألك اللهم العافية ، ونستغفرك ونتوب اليك .

نستقل الطائرة إلى القاهرة ، فنجـــد فى استقبالنا الأخ سكرتير نادى الجمارك برفقة زميل آخر لتخرج أمتعتنا دون تفتيش جمركى ، لقد أحسن الظن بحجاج بيت الله وأتذكر يوم أرادت مجموعة من رجال الجمـارك السفر لتأدية العمرة فاذا السيد وكيل الوزارة لشئون الجمارك يعطى تعليمات « أنهم سيخضعون عند العـودة لإجراءات مشددة وسينظر فى أمر المخـالفين - إلى جانب ما هو مقرر فى القانون الجمركى - بالنقل من مصلحة الجمارك (١) .

لقد تغيرت النفوس بتغير سياسة الدولة ... وكفى المرء سعادة أن يوثق به فى أمر دينه ودنياه .

(١) صدر كتاب بهذا النص فى ٩ / ٩ / ١٩٧٢ م .

وبعـد :

فهذه رحلات إلى خارج القطر خلال أربع سنوات من سنى الشباب مرتبة ترتيبا زمنيا حسب القيام بها ، رحلات سريعة من حيث الاحساس الشخصى ولكنى حين أمسكت القلم أدونها وجدت فى نفسى حاجة إلى الأناة والصبر حتى تأتى الكلمة معبرة بالدقة الممكنة عن المواقف التى مررت بها ، ذلك أن كل موقف يستدعى المقارنة بنظيره أو نقيضه فى حياتنا بمصر وهنا قد يجتاح الانسان شعور بالإعجاب أو الإحباط فيفقده النظرة الموضوعية وقد جهدت ألا أفقد هذه النظرة وهو ما يمثل عندى سببا جوهريا فى إعادة الرحلة إلى بلاد زرتها من قبل .

غير أن كتابنا مع تكرار ما فيه من الرحلات قد يجد فيه القارىء من التنوع ما يشوق لأنه صورة حياة فى بيئات مختلفة عربية وغربية ، اسلامية وغير إسلامية ، تجارية وزراعية وصناعية ، فى الصحراء وفى الموانىء .

والكتاب محاولة لتقصى الحقائق العلمية والتاريخية فى الموضوع الذى يتناوله مزودة بالخرائط والصور لكى يعيش القارىء الرحلة بفكره وروحه وبصره بعض وقته .

فاذا قال قارىء من بعد لقد أغنانى الكتاب ـ متعة وفائدة ـ عن الرحلة بنفسى فهذا نجاح ، وإذا قال آخر : أريد التجربة بنفسى ... فهو النجاح الذى ننشده .

المراجع

(نثبت بعض المراجع، وثمة غيرها نكتفى بإيراده فى موضعه من الكتاب)

١ ـ أسباب النزول .

جـــلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (السيوطى)

ط التحرير بالقاهرة ١٣٨٢ هـ .

٢ ـ الطبقات الكبرى .

محمد بن سعد (كاتب الواقدى) ط التحرير بالقاهرة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م

٣ ـ الأطلس العربى .

رسم وطبع بإدارة المساحة العسكرية بالقاهرة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م

٤ ـ الموطأ .

مالك بن أنس . ط الشعب ، القاهرة .

٥ ـ أوربا فى مجرى التاريخ (دراسة جغرافية)

دكتور محمود جلال الدين الجمل . ط النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٩ م

٦ ـ الجامع الصحيح .

الإمام مسلم . ط التحرير القاهرة ١٣٨٣ هـ

٧ ـ تفسير القرآن العظيم .

عماد الدين إسماعيل (ابن كثير) ط . الحلبى القاهرة .

٨ - جغرافية أوربا .
توفيق سابق ، محمد مرسى أبو الليل . ط كوستاتسوماس.الظاهر،القاهرة

٩ - جغرافية أوربا الاقليمية .
دكتور جودة حسنين جودة . ط جامعة الاسكندرية ١٩٧٠ م

١٠- رحلة ابن بطوطه « تحفة النظار »
ط التحرير ١٣٨٦ - ١٩٦٦ القاهرة .

١١- رحلة ابن جبير
أبو الحسين محمد بن أحمد (بن جبير) ط التحرير - القاهرة .

١٢- سفر السعادة .
أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب (الفيروز بادى) .
ط صبيح ، القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م

١٣- السفر إلى المؤتمر .
أحمد زكى - ط . الاميرية - مصر ١٣١١ هـ ١٨٩٤ م

١٤- سيرة النبي
لأبى محمد عبد الملك (ابن هشام) ط التحرير بالقاهرة - ١٣٨٣ هـ

١٥- صحيح البخارى
لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم (البخارى) ط الشعب ١٣٧٨ هـ القاهرة

١٦- فى منزل الوحى .
الدكتور محمد حسين هيكل . ط مصر ١٩٥٧ م

١٧- مجموعة الرسائل الكبرى
لابن تيميه . ط صبيح ، القاهرة ١٩٦٦ م

١٧- مروج الذهب
أبو الحسن على بن الحسين بن على (المسعودى)
ط التحرير القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

١٨- مكة المكرمة
محمود الشرقاوى ط الاهرام ، القاهرة ١٩٧٢ م

* * *

تصـــويب

صفحة	سطر	
٤٢	٧	فى حقيبة
٥٥	١٧	وينتهى النظر كما تنتهى الحياة
٩٩	١٦	شريط حياة

إلى هنـا — نعتذر للقارىء عنها .

٦٢ — نهر الكلب — مغارة جعيتا (لبنان) .

(المقالة الرابعة) فى مهبط الوحى

٦٦ — زى الطالبات (أنظر أيضا ص١٠٣)
٦٧ — الابتلاء وسكينة النفس .
٦٨ — بدر : الموقعة والمعانى التى تزخر بها .
٧٢ — مناجاة الرسول (ﷺ) .
٧٣ — أبو بكر وعمر بن الخطاب — أهل الصفة .
٧٤ — إعانة للفقراء — حمام الحرم .
٧٥ — أخوة المؤمنين .
٧٦ — صحف المدينة .
٨٤ — قبر حمزة وصاحبيه .
٨٦ — مسجد الفتح — الغماية — آبار على .
٨٧ — بمكة « أنظر أيضا ص ١٢٣ »
٩٥ — الصفا والمروة .
٩٧ — دلالات المسعى (تقدير الأمومة ، العمل الدائب ، الامتثال) .

(المقالة الخامسة) أيام فى رومانيا

١٠٧ — سكان رومانيا « أنظر ص١١٣ وما بعدها »
١٠٨ — المرأة فى رومانيا .
١٠٩ — ماما يا .
١١٥ — كونستانتسا — دور العبادة (أنظر ص١١٦ عن الشباب)
١١٧ — اللغة الرومانية .

* * *

هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاسكندرية .

* * *

مطبوعات المؤلف

١ ـــ الأدب فى حماسة أبى تمام (١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م)

٢ ـــ أساليب النفى فى القرآن (١٣٨٨ هـ ـــ ١٩٦٨ م)

٣ ـــ العمل فى الإسلام (١٣٩٠ هـ ـــ ١٩٧٠ م)

٤ ـــ العقاد والمرأة (١٣٩٠ هـ ـــ ١٩٧٠ م)

٥ ـــ يوسف فى القرآن (١٣٩١ هـ ـــ ١٩٧١ م)

٦ ـــ لقطات (١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م)

٧ ـــ وفاء: من وحى حرب العاشر من رمضان (١٩٧٣م)

٨ ـــ نظرات فى سورة النور (١٣٩٦ هـ ـــ ١٩٧٦ م)

تحت الطبع

٩ ـــ مع سورة الكهف

١٠ ـــ الرحمن والإنسان والجن

« تفسير للسور الثلاث »

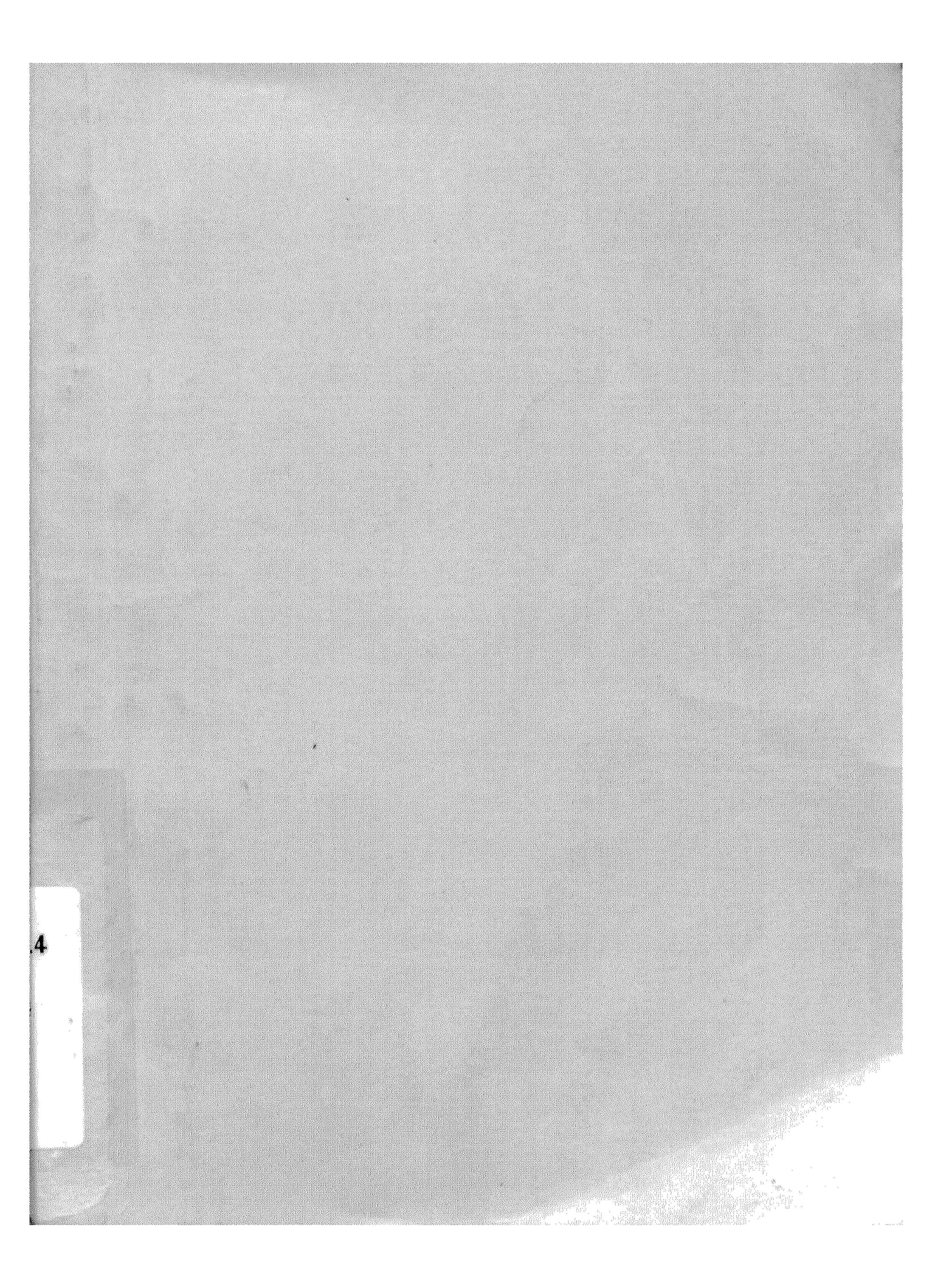
١١ ـــ صور من حياة

١٢ ـــ حواء فى كلمات وخواطر أخرى .

١٣ ـــ العقاد . الرجل والقلم

١٤ ـــ ابن القيم

١٥ ـــ الاسلام والحق


.4